ديه سيجي

بلزاك والخياطة الصينية الصغيرة

رواية



ترجمة: محمد أحمد عثمان
مراجعة: جســـاس أنعـم

نينوى

دي سيجي

بلـزاك
والخياطة الصينية الصغيرة

رواية

ترجمة: محمد أحمد عثمان
مراجعة: جساس أنعم

بلـزاك

والخياطة الصينية الصغيرة

اسم الكتاب: بلزاك والخياطة الصينية الصغيرة - رواية

اسم الكاتب: دي سيجي

عدد الصفحات: 190

القياس: ١٤,٥ * ٢١,٥

١٠٠٠/٢٠١٠م - ١٤٣١هـ

الطبعة الثانية

دار نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

سورية . دمشق. ص ب ٤٦٥٠

تلفاكس: ٢٣١٤٥١١ ١١ ٩٦٣ +

هاتف: ٢٣٢٦٩٨٥ ١١ ٩٦٣+
E-mail:ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org

العمليات الفنية:

التنضيد والإخراج والطباعة وتصميم الغلاف
القسم الفني ـ دار نينوى

مقدمة المترجم

وراء العزلة التي يعيشها الأدب الصيني تتشامخ كومة من أسـباب يختلط فيها ما هو سياسي مع ما هو ثقافي. فقط عبر ممثليه الذين يعيشون في المهجر أمثال (جاوشين جيان) و(شان سا) وغيرهما. استطاع هذا الأدب خلال السنوات الأخيرة أن يكسر حاجز العزلة هذا. فمنذ نيل الكاتبة الصينية (شان سا) جائزة GONCOURT عن روايتها (بوابة السلام السماوي) عام (١٩٩٨م) بدأ هذا الأدب يستقطب اهتمام قطاع أوسع من القراء في أوروبا ليصل هذا الاهتمام ذروته مع فوز (جاوشين جيان) بجائزة نوبل عام (٢٠٠٠م) عن روايته (جبل الروح). هذا النجاح الذي حازته الرواية في الغرب ربما يمثل سبباً من أسباب عدة أدت إلى أن تلقى هذه الرواية التي بين أيدينا (بلزاك والخياطة الصينية الصغيرة) ما تستحق من اهتمام من قبل القارئ الفرنسي منذ لحظة صدورها عام (٢٠٠٠م) عن دار جاليمار رغم أنها العمل الأول لمؤلفها الصيني (ديه سيجي).

تجري أحداث الرواية في أحد الأرياف النائية، في إقليم سيشوان ""هذا الإقليم البعيد عن بكين والقريب جداً من التبت"" وفي عهد حكم الزعيم الصيني ماوتسي تونج حيث يُرسل السارد مع صديق طفولته ومراهقته (لو) ضمن حملة إعادة التأهيل - التي أطلقها ماو في يوم من أواخر العام (١٩٦٨م)- وذلك ليعاد تأهيلهما مثل ملايين الشباب الصينيين (تحت إشراف الفلاحين الفقراء) وهنا في هذه القرية يُخضع الشابان الصغيران لأنواع شاقة من العمل السخرة وفي ظروف جغرافية ومناخية قاسية لا يجدان ما يشفع لهما سوى موهبتهما الفريدة في الكلام والتي أغرت مأمور القرية وهو (آخر السادة المولعين بالحكايات

الشفهية الجميلة) على إرسالهما مرة واحدة كل شهر إلى مركز المقاطعة لحضور العرض الشهري لفيلم سينمائي يقام في ساحة الألعاب الرياضية في المدرسة الثانوية للمدينة (التي تتحول مؤقتاً إلى سينما في الهواء الطلق) ليقوما من ثم عند عودتهما بسرد ما شاهداه بالتفصيل لأهالي القرية وعلى رأسهم المأمور (بعينه اليسرى المبقعة على الدوام بثلاث قطرات من الدم). في هذه الأثناء تتعقد صلتهما بالخياطة الصغيرة التي سيخوضان معها وبدونها أنواعاً من المغامرات لعل أهمها مغامرتهما مع مؤلفات (بلزاك) التي كانت تندرج، آنذاك مع غيرها من مؤلفات الأدب الغربي في خانة المحرمات مخترقين بذلك أحد التابوهات المؤَسّسة للسلطة السياسية. ولكي لا تتحول مقدمتي هذه إلى كراسة تعليمات أضعها بين يدي القارئ سأكتفي بثلاث إشارات فقط تاركاً للقارئ حرية معانقة هذا العمل الغارق في استرجاع التجربة الفريدة لمؤلفه أو سارده، لا أدري.

أولاً: أود الإشارة إلى أن هذه الرواية تلتقي مع كتابة السيرة الذاتية في غير نقطة، فهي أولا تعود إلى أحداث وتواريخ مستمدة من تاريخ الصين المعاصر تجعل منها إطاراً عاماً وموضوعياً للقصة. يأتي بعد ذلك استرجاع الأحداث من منظور ضمير المتكلم - باستثناء الأجزاء الثلاثة من الفصل الثالث حيث يُسلم خيط السرد بالتوالي إلى كل من الطحان العجوز، لو، الخياطة الصغيرة - الذي هو في ذات الوقت شخصية رئيسية منخرطة في الأحداث ومشاركة في صنعها وسارد يقف منها على مسافة تضيق وتتسع بمقتضى الحاجة إلى خلق رؤية كلية وشاملة تنطوي على رؤيته بوصفه مراقباً خارجياً منفصلاً عنها. إلى عدم ثبات المسافة الفاصلة بين زمن السرد وزمن الأحداث هذا، يمكننا أن نعزي ذلك التنوع الأسلوبي الذي يسم الرواية. فحين يتعلق الأمر برسم إطار عام للأحداث أو سرد أحداث لا تمت بصلة لخبرته الذاتية المباشرة كشخصية رئيسة نراه يعمد إلى التزام مسافة كبيرة مما يتيح له حرية الحركة والتنقل بين الأزمنة وإسقاط أزمنة وأحداث لا تخدم القصة. تساعده في ذلك تقنية التقطيع التي بموجبها ينقسم

العمل إلى أجزاء كل منها يبدو كما لو أنه كيان قائم بذاته رغم عدم استقلاليته عن المسار الخطي للأحداث التي تتسلسل وتتدفق في اتجاه واحد يسير من نقطة بعيدة في الماضي إلى أخرى أقرب. وحين يمتد الحديث إلى صلب التجربة الذاتية للسارد تضيق المسافة حتى يخيل إلينا أنها قد ألغيت واندمج زمن السرد بزمن الأحداث ولم تعد هناك سوى حواس الشخصية الرئيسية ترفد العمل بفيض من تفاصيل صغيرة تبدو وكأنها لا تصدر عن ذاكرة وإنما عن مشاهدة مباشرة يزخر بها العمل في غير قسم منه.

ثانياً: عدم حياد السارد بوصفة شخصية رئيسية تمتلك موقفاً ووجهة نظر يتم من خلالها سرد الأحداث، لم ينح بالعمل الأدبي نحو الخطابة والشعاراتية. ما أحال دون ذلك التزام السارد بوجهة نظر شخصية فلا لجوء لأحكام عامة ولا انطلاق من وجهة نظر سياسية محددة سلفاً (اللهم إلا إذا استثنينا فكرة الحرية الفردية التي تطل علينا بين حين وآخر من بين السطور) عدا ذلك فكل شيء يتم من منظور فردي خالص وحيث لا يحضر النظام السياسي (هدف النقد) بوصفه بناء مجرداً وإنما متجسد في أشخاص وسلوكيات وارغامات يجد الأبطال أنفسهم مصطدمين بها على طول الرواية.

أخيراً: تستدعي الرواية أيضاً موضوعة عالجها الأدب الغربي من قبل: (المعركة الفردية ضد العالم أجمع) ولأن هذه المعركة تجري هنا في سياق اجتماعي - تاريخي مغاير حيث لم تعد الجماعة التي يواجهها الفرد مجرد جماعات تتجاذبها أهواء ومصالح متباينة وإنما مجتمع يخضع أفراده لهيمنة سياسية وأيديولوجية منظمة تجعل من شعار مصلحة الجماعة مبررها لإخضاع الفرد ونفي فرديته مستثمرة في ذلك تاريخاً طويلاً من غياب تقاليد الحرية الفردية فإنه يستحيل على الفرد المنطوي في إطار هكذا مجتمع الحفاظ على استقلاليته ويكون مصير الفرد المقاوم اليأس والانكسار (كما حدث للسارد وصديقه لو) أو الهروب (كما حدث للخياطة الصغيرة).

الفصـل الأول

كان مأمور القرية - وهو رجل في العقد الخامس من عمره - يجلس في وسط الحجرة بالقرب من الفحم المشتعل، داخل موقد على هيئة تجويف في الأرض مباشرة، يتفحص كمنجتي. فمن بين الأمتعة الخاصة بـ""ابنيّ المدينة"" اللذين كنا، (لو) وأنا، نمثلهما في نظر أهل القرية كانت الكمنجة على ما يبدو هي الموضوع الوحيد الذي يفوح بنكهة غريبة تمتلك خاصية إيقاظ الشكوك: رائحة المدينة.

اقترب أحد الفلاحين وفي يده مصباح كيروسين لتتم في ضوئه معاينة الآلة التي رفعها المأمور على نحو أفقي وراح يتفحص الثقب الأسود للصندوق بالدقة التي يفتش بها موظف جمارك عن المخدرات في أمتعة المسافرين. لمحت في عينه اليسرى ثلاث قطرات من الدم، واحدة كبيرة والأخيران صغيرتان، لكن لها جميعاً نفس الدرجة من الحمرة المتقدة.

رفع الكمنجة إلى مستوى عينيه وهزها بحركة تنم عن الاهتياج كما لو كان يتوقع سقوط شيء ما من القعر المعتم للصندوق. انتابني إحساس أن الأوتار توشك أن تتمزق فيما ستتطاير الأنوال شظايا.

كان جميع سكان القرية حاضراً تقريباً، في الدور الأرضي من هذا المنزل المقام على أوتاد والضائع على قمة الجبل، رجال ونساء وأطفال يتزاحمون في الداخل، يتشبثون بالنوافذ، ويتدافعون أمام الباب. وبما أن لا شيء سقط من آلتي، فقد قرّب المأمور أنفه من الثقب المعتم وأخذ نشقة واحدة، رأيت معها الشعرات السميكة والطويلة والمتسخة التي تبرز من منخره الأيسر ترتعش.

لكن ما من أدلة جديدة.

مرر أصابعه المتشققة على أحد الأوتار، ثم على آخر... نغمة غير

محددة صعقت الجمع في الحال. بدا الأمر كما لو أن الرنين قد أجبر كل واحد من الحضور على أن يبدي نصف احترام.

- إنها لعبة.

نطق المأمور بوقار.

هذا الحكم أصابنا، (لو) وأنا، بالصميم. تبادلنا نظرة مختلسة لكن قلقة، سألت نفسي كيف سينتهي الأمر.

انتزع أحد الفلاحين الـ(لعبة) من يدي المأمور وطرق بقبضته على ظهر الصندوق، ثم ناولها إلى آخر. خلال لحظة دارت كمنجتي بين أفراد الجمع. لا أحد كان مهتماً بنا، نحن صبيي المدينة، الهشين، النحيلين والمتعبين، والذي كان مظهرنا يدعو إلى الضحك. فبعد نهار من السير على الجبال، كانت ملابسنا ووجوهنا وشعرنا ملطخة بالطين. كنا مثل جنديين، رجعيين، صغيرين يجرى اعتقالهما – في أحد أفلام الدعاية السياسية – من قبل كتيبة من الفلاحين الشيوعيين عقب معركة خاسرة.

- مسخرة!

قالت امرأة بصوت أجش.

- لا. إنها لعبة برجوازية، آتية من المدينة.

صحح المأمور.

عند سماعي هذه العبارة استولى عليَّ شعور بالبرد، رغم النار الكبيرة في وسط الغرفة. سمعت المأمور يضيف:

- لا بد من إحراقها!

أثار هذا الأمر، رد فعل يتسم بالحيوية وسط الجمع الذي أخذ أفراده يتكلمون، يصرخون، يتزاحمون وكل منهم يحاول الاستيلاء على الـ(لعبة) لينفرد بمتعة إلقائها في نيران يديه.

- إنها آلة موسيقية، أيها المأمور. إن صديقي موسيقي بارع ولست أمزح.

بادر (لو) إلى القول بأسلوب متملق.

أخذ المأمور الكمنجة، مجدداً، بين يديه. تفحصها من جديد ثم ناولها إليّ:

- للأسف، أيها المأمور، إنني لا أجيد العزف.

قلت وقد انتابني شعور بالضيق.

في نفس اللحظة، رأيت (لو) يرسل ناحيتي غمزة، لم أدرك فحواها. بيد أنني تناولت الكمنجة وبدأت في ضبط إيقاعها.

- ستسمعون سوناتا لموزارت، أيها المأمور.

صرح (لو) بنفس القدر من الهدوء الذي كان بادياً عليه قبل قليل.

اعتراني الذهول وقد خلت أنه جن، فمنذ بضع سنوات وكل أعمال موزارت أو أي موسيقي غربي آخر ممنوعة في بلدنا. داخل جواربي المبللة أحسست بأقدامي الراشحة تتثلج، ارتعشت من البرد الذي استولى عليّ من جديد.

- ماذا تعني بسوناتا؟

سألني المأمور بارتياب.

- لا أعرف. شيء غربي.

بدأت بالتلعثم.

- أغنية؟

- إنها كذلك وليست كذلك.

أجبت مراوغاً.

وفي الحال ظهر في عيون المأمور انتباه مكثف لشيوعي قح. قال

وقد استحال صوته عدائياً:

- ما اسم أغنيتك؟
- إنها تشبه الأغنية، لكنها سوناتا.
- أسألك عن اسمها!

صرخ وهو يحدق في عينيَّ مباشرة. بعثت قطرات الدم الثلاث في عينه اليسرى الخوف فيَّ مجدداً.

- موزارت...، وداهمني التردد.
- موزارت ماذا؟
- موزارت يؤمن بالزعيم (ماو).

قال (لو) مستأنفاً الحديث بدلاً عني.

يا لوقاحة (لو)! بيد أنها كانت فعالة، فعلى إثرها لانت الملامح المتوعدة للمأمور فيما تغضنت عيناه بابتسامة رضى عريضة، كما لو أنه قد سمع شيئاً عجيباً.

- موزارت يؤمن بماو إلى الأبد، قال.
- نعم إلى الأبد، أكد (لو).

حالما وترت شعرات قوس كمنجتي تعالت فيما حولي فجأة تصفيقات حارة، أصابتني بالخوف تقريباً، وفيما توافدت عبارات موزارت إلى ذهني مثل أصدقاء أوفياء شرعت أصابعي تجوب الأوتار.

أخذت وجوه الفلاحين – التي ظلت قاسية حتى الآن – في الارتخاء التدريجي تحت تأثير الفرح الرائق لموسيقى موزارت، حتى بدت شبيهة بتربة تستعيد رطوبتها تحت المطر، ثم أخذت – في الضوء المتراقص لمصباح الكيروسين – تفقد تقاطيعها شيئاً فشيئاً.

استمريت في العزف وقتاً طويلاً. أشعل أثناءه (لو) سيجارة وراح

يدخن بهدوء مثل رجل ناضج.

هكذا كان النهار الأول الذي أمضيناه في إعادة التأهيل، حينها كان (لو) في الثامنة عشرة، وأنا في السابعة عشرة.

❁ ❁ ❁

كلمتان حول إعادة التأهيل: في الصين الحمراء وفي يوم من أواخر العام (١٩٦٨)، أطلق القائد الأعلى للثورة الزعيم (ماو) حملة كان من في (الشبيبة المثقفة) – أي الطلاب الذين أنهوا دراستهم الثانوية – إلى الريف لكي (يعاد تأهيلهم) تحت إشراف الفلاحين الفقراء.

(بعد ذلك ببضع سنوات – ألهمت هذه الفكرة غير المسبوقة زعيم ثوري آسيوي آخر، كمبودي، أكثر طموحاً وأكثر راديكالية أيضاً، فقام بإرسال كل سكان العاصمة شيوخاً وشباباً، بلا تمييز (إلى الريف). المبرر الحقيقي الذي دفع بماوتسي تونج إلى اتخاذ هذا القرار ظل غامضاً: هل أراد بذلك أن يتخلص من الحرس الأحمر الذي بدأ يتملص من رقابته؟ أم أنها كانت فانتازيا حالم ثوري كبير يرغب بخلق جيل جديد؟ ما من أحد عرف، أبداً، الإجابة على هذا السؤال.

في ذلك الحين كنا، (لو) وأنا، غالباً ما نتجادل حول هذا الأمر، خفية مثل متآمرين. والنتيجة التي خلصنا إليها كانت كالتالي: كان (ماو) يكره المثقفين.

لم نكن أول ولا آخر من أخضع لهذه التجربة الإنسانية الكبيرة. كان ذلك مع بداية عام (١٩٧١) حين وصلنا إلى ذلك المنزل المقام على الأوتاد والضائع في أقصى ذروة من الجبل، حيث عزفت لمأمور القرية على الكمنجة. كما أننا لم نكن الأكثر نحساً كذلك. فملايين من الشباب

كانوا قد سبقونا وملايين كانوا سيلحقون. لكن كان هنالك أمر واحد يجعل ما يسمى بسخرية القدر ينطبق على حالتنا: لا (لو) ولا أنا كنا تلاميذ في مدرسة ثانوية. أبداً لم يحالفنا الحظ في الجلوس في فصل دراسي ثانوي، حين بعثونا إلى الجبل بوصفنا (مثقفين)، كنا، ببساطة، قد أنهينا السنوات الثلاث الأخيرة من التعليم الأساسي. كان من الصعب اعتبارنا كذلك دون اقتراف مخالفة خداع، خاصةً وأن المعارف التي تلقيناها في المدرسة الابتدائية كانت شيئاً لا يذكر: بين الثانية عشرة والرابعة عشرة، انتظرنا أن تستقر الجمهورية وأن يعاد فتح مدرستنا. لكن عندما دخلنا أخيراً إليها كانت حصص الرياضيات بالإضافة إلى الفيزياء والكيمياء قد أُلغيت وأصبحت (المعارف الأساسية) محصورة، من الآن فصاعداً بالصناعة والزراعة. كان بوسع المرء أن يرى على أغلفة الكتب المدرسية صورة لعامل يرتدي طاقية تلوح عليها مطرقة هائلة تمسك بها أذرع بضخامة أذرع ستالون. إلى جانبه تقف امرأة شيوعية بملابس فلاحة وبمنديل أحمر على الرأس (كانت هنالك نكتة متداولة بين الطلاب فحواها أنها تحيط رأسها بفوطتها الصحية) وقد ظلت هذه المناهج بالإضافة إلى الكتاب الأحمر الصغير لماوتسي تونج هي المعين الوحيد للمعرفة لسنوات عدة. كل الكتب الأخرى كانت ممنوعة.

كان حرماننا من دخول المدرسة الثانوية وإجبارنا على أن نأخذ على عاتقنا دور الشبيبة المثقفة، يعود إلى آبائنا، الذين كانوا يعتبرون حينها أعداء للشعب، مع أن الجرائم المنسوبة إليهم كانت سهلة إذا ما قورنت بتلك المنسوبة إلى سواهم.

كان والديّ يعملان في مهنة الطب، أبي طبيب أمراض رئوية وأمي متخصصة في الأمراض الطفيلية، وكلاهما كانا يعملان في مستشفى

مدينة شنجدو، عاصمة مقاطعة سيشوان، التي يبلغ عدد سكانها أربعة ملايين نسمة. كانت جريمتهما تتمثل في أنهما من (أعضاء الطبقة المسيطرة النتنة) التي تنعم بسمعة متواضعة بين المائة مليون نسمة القاطنة في هذه المقاطعة البعيدة عن بكين لكن القريبة جداً من التبت.

قياساً إلى أبي كان والد (لو) يتمتع بشهرة واسعة بوصفه طبيب أسنان كبيراً معروفاً في الصين كلها. ذات يوم، قبل الثورة الثقافية، كان قد صرح لتلامذته أنه قام بتركيب أسنان صناعية لماوتسي تونج، ولعقيلته وأيضاً لجيونج جيشي رئيس الجمهورية السابق على استيلاء الشيوعيين على السلطة.

في الواقع كان الكثيرون قد لاحظوا، من فرط المشاهدة اليومية لصورة (ماو)، وعلى مدار سنوات، أن أسنانه مصفرة ومتسخة تقريباً. بيد أنهم كانوا يقابلون ذلك بالصمت، وهاهو ذا طبيب أسنان رفيع المستوى يصرح للعامة بشيء كهذا: أن القائد الأعلى للثورة يضع طقم أسنان صناعية. ياله من فعل يفوق كل جسارة! إنها جريمة غير معقولة ولا تغتفر، أسوأ من إشاعة سر يتعلق بالدفاع القومي. لسوء الحظ، كانت إدانته بالغة القسوة، كونه قد تجرأ ووضع اسم (ماو) وعقيلته في نفس المقام مع كبير البذيئين هذا: جيونج جيشي.

عاشت عائلة (لو)، لوقت طويل، في الشقة المقابلة لشقتنا، في الدور الثالث والأخير من عمارة القرميد الأحمر. كان (لو) هو الابن الخامس لأبيه والطفل الوحيد لأمه.

ليس هناك أدنى مبالغة في القول أن (لو) كان أفضل صديق عرفته في حياتي. فقد كبرنا معاً وخضنا معاً جميع أنواع التجارب التي كانت قاسية أحياناً، كما أننا نادراً ما كنا نتشاجر. سأتذكر دائماً المرة ا لوحيدة

التي تعاركنا فيها أو بالأحرى المرة التي ضربني فيها: حدث ذلك في ما بعد ظهيرة أحد أيام صيف عام (١٩٦٨)، كنت في الرابعة عشرة بالكاد فيما كان هو في الخامسة عشرة، وفي أثناء انعقاد اجتماع سياسي كبير في المستشفى الذي يعمل فيه آباؤنا، وبالتحديد على ساحة ملعب كرة السلة، في الهواء الطلق. كلانا كان يعرف أن والد (لو) هو موضوع هذا الاجتماع وأن فضيحة عامة جديدة لجرائمه كانت بانتظاره. كانت الساعة الخامسة ولم يكن أحد من آبائنا قد عاد إلى المنزل، حين طلب مني (لو) أن أرافقه بعيداً.

- سنتعرف على هؤلاء الذين يوشون ويضربون أبي - قال لي - وحين نكبر سننتقم منهم.

كان الجو حاراً، فيما مكبر الصوت يعوي في ساحة ملعب كرة السلة التي كانت مزدحمة وتعج بالرؤوس السوداء. كان والد (لو) جاثياً وسط المنصة تتدلى على صدره، من سلك معدني - يغور ويتوارى في جلد رقبته تقريباً - يافطة إسمنتية ثقيلة جداً، مدوناً عليها اسمه وجريمته: رجعي.

من مسافة ثلاثين متراً، خيل إليَّ أنني أرى على الأرض، أسفل رأسه بقعة عريضة سوداء، تكونت من عرقه. من خلال المكبر ارتفع صوت المتوعد لرجل يقف إلى جواره:

- اعترف أنك ضاجعت هذه الممرضة!

أحنى الأب رأسه، أكثر فأكثر، نحو الأسفل إلى درجة اعتقدنا معها أن عنقه قد انكسر بفعل اليافطة الإسمنتية. أدنى الرجل الميكرفون منه. فسمعنا (نعم) واحدة، شديدة الخفوت ومرتعشة تقريباً تفلت من فمه..

- كيف حدث هذا؟ (عوى المحقق خلال الميكروفون)، هل أنت

أغويتها أولاً.

- أنا أغويتها أولاً.
- وبعد؟

خيم الصمت لبضعة ثوانٍ، ثم صرخ الجمع كرجل واحد:

- وبعد؟

هذه الصرخة المعادة من قبل ألفي شخص ترددت مثل صاعقة فـوق رؤوسنا.

- وبعد؟
- قدمتُ...، قال الجاني.
- أكثر تفاصيل أكثر!
- لكن منذ أن أغويتها سقطتُ... في الغيوم والضباب.

اعترف أب (لو).

وفيما كانت صرخات هذا الحشد من المحققين المتعصبين قـد بـدأت ثانية في الهيجان، غادرنا المكان. في الطريق أحسست بالـدموع تسـيل فجأة على وجهي وقد أدركت كم كنت أحب هذا الجار العجوز، طبيـب الأسنان.

في هذه اللحظة بالذات تلقيت من (لو)، صفعة بلغت من القوة درجـة أوشكت معها أن أسقط على الأرض. بيد أني لم أرد عليه حتى بكلمة.

❁ ❁ ❁

في عام (١٩٧١)، كان ابن طبيب الأمراض الرئوية، ورفيقه ابن أحد ألد أعداء الشعب الذي حالفه الحظ فلمس أسنان (ماو)، مجـرد شـابين مثقفين بين مئات الصبيان والصبايا الذين أرسلوا إلى هذا الجبل، المسمى (فينيق السماء). اسم شاعري يفصح بشكل مدهش عن ارتفاعه الشـاهق: لم يكن بوسع عصافير الدوري المسكينة ولا عصافير الدوري المسـكينة

ولا عصافير السهل العادية أن تعتليه. وحدها الطيور الخرافية، القديرة، المتوحدة بشكل عميق والمنتمية إلى السماء من بوسعها القيام بذلك.

ما من طريق تصعد عليه، باستثناء، درب ضيق يمر بين الكتل الهائلة من الصخور ذات السنان والأطواد والأعراف المتباينة الحجم والشكل لرؤية طيف سيارة أو لسماع بوقها - كعلامة على المدينة- أو لشم رائحة مطعم، يتوجب المشي لمدة يومين داخل الجبل لتصل، من ثم، بعد اجتياز مئات الكيلومترات إلى حافة نهر (يا) حيث يقع مركز يونج جينج، المدينة الأكثر قرباً. الغربي الوحيد الذي وضع أقدامه فيها كان المبعوث الفرنسي الأب ميشيل وذلك في الأربعينات، فيما كان يفتش عن ممر جديد للوصول إلى التبت (مقاطعة يونج جينج تثير الدهشة، وبوجه خاص أحد جبالها الذي يسمى فينيق السماء هكذا كتب هذا اليسوعي في مفكرة رحلته - جبل مشهور باكتنازه بالنحاس الأصفر الذي كان يستخدم قديماً في سك النقود. يقال أن إمبراطوراً من سلالة (هان) قدم هذا الجبل، خلال القرن الأول للميلاد، كهدية لعاشقه الذي كان واحداً من كبار طواشي قصره. حين أرسل نظراتي ناحية قممه بارتفاعاتها الباعثة على الدوار والمنتصبة في كل ناحية، أرى درباً ضيقاً، يسير داخل الصدوع المعتمة للصخور الناتئة ليتبخر، من ثم، في الضباب، ينحدر عليه بضعة أشخاص حاملين - مثل حيوانات - معدات نحاسية موثقة إلى ظهورهم بسيور جلدية. لقد علمت أن إنتاج النحاس في انحدار منذ مدة طويلة، بسبب غياب وسائل النقل، بدرجة أساسية. من هنا كان لجوء السكان إلى زراعة الأفيون، تساعدهم على ذلك الجغرافيا الخاصة بهذا الجبل، فضلاً عن ذلك فقد نُصحت بعدم وضع أقدامي عليه: كل مزارعي الأفيون مسلحون ويُمضون أوقاتاً ما بعد الحصاد في مهاجمة

العابرين لذلك اكتفيت بأن أُشاهد عن بعد، هذا المكان الموحش والنائي والمعتم بسبب كثافة الأشجار العملاقة، والنباتات المتسلقة والخضرة الوفيرة، مما يجعل منه مكاناً مفضلاً لقاطع الطريق حيث يكون بإمكانه أن ينبع من الظلال ليثب على الرحالة).

في جبل الفينيق، كانت هنالك عشرات القرى تتوزع على منعطفات الطريق الوحيد أو تتوارى داخل الوديان المعتمة، كان مقدراً لكل قرية أن تستقبل في الظروف الاعتيادية خمسة أو ستة من الشباب القادمين من المدينة. لكن القرية التي كانت من نصيبنا وهي قرية تجثم على أعلى قمة، وأكثر بؤساً بين القرى لم يكن بوسعها أن تستوعب إلا اثنين على الأكثر: (لو) وأنا. خصصوا لنا، بالتحديد، المنزل ذا الأوتاد حيث تفحص مأمور القرية كمنجتي.

لم يكن هذا المنزل بالمكان الملائم للعيش، إذ كان دوره الأرضي الذي يرتفع عن الأرض على أعمدة خشبية، يستعمل كزريبة تعيش فيها خنزيرة سمينة، كانت أيضاً ملكية مشتركة لجميع أهل القرية. بتعبير أدق كان المنزل مبنياً من خشب عتيق غير مصقول وغير مطلي وبلا سقف ويستخدم كمخزن للذرة والأرز والآلات الخردة، كما كان أيضاً مكاناً نموذجياً للقاءات الغرامية.

لسنوات عدة، لم يعرف مقر إعادة تأهلينا هذا أي أثاث ولا حتى طاولة أو كرسي، فقط سريرين مصنوعين على نحو مرتجل ومحشورين إزاء الجدار في حجرة بلا نوافذ.

بالرغم من ذلك، سرعان ما صار مركزاً للقرية: كان الناس يأتون إليه، بما فيهم المأمور، بعينه اليسرى المبقعة على الدوام بثلاث قطرات من الدم.

كل هذا بفضل (فينيق) آخر صغير جداً، بالغ الصغر تقريباً، أرضي

على الأرجح تعود ملكيته إلى صديقي (لو).

في الواقع لم يكن فينيقاً حقيقياً. بل ديكاً متكبـــراً، بـــريش طــــاووس، ريش أخضر، مقلم بخطوط قاتمة الزرقة. ينكس رأسه بســـرعة، تحـــت الزجاج المتسخ قليلاً، ناقراً بمنقاره الخشبي مدبب الطرف، أرضاً غيـــر مرئية، فيما عقارب الثواني تدور بطيئاً على ميناء الساعة. ليرفع، مـــن ثم، رأسه ومنقاره مفتوح نافضاً الريش وقد بدت عليه مظاهر الإشـــباع، لكونه قد التقط حبات أرز متخيلة.

كم كان صغيراً منبه (لو)، بديكه الذي يتحرك مع كل ثانية! بفضـــل حجمه الضئيل دون شك أفلت من رقابة مأمور القرية، عنـــد وصـــولنا. كان بحجم راحة اليد بالكاد، لكن برنين جميل مفعم بالعذوبة.

قبل وصولنا، لم تكن هذه القرية قد عرفت أي منبه ولا ساعة يـــد أو ساعة حائط. كان الناس يعتمدون، دائماً، في تحديد الوقت على مشـــاهدة الشمس في شروقها وغروبها.

لقد دُهشنا ونحن نرى كيف امتلك المنبه سلطة حقيقية علـــى النـــاس. سلطة مقدسة تقريباً. كانوا جميعاً يجيئون لمعاينته حتى غـــدا منزلنـــا ذو الأوتاد بمثابة معبد. كل صباح يتكرر الطقس ذاته: يعمل المأمور مائـــة خطوة حول منزلنا، مدخناً غليونه المصنوع من الخيزران والطويل مثل بندقية عتيقة. لم تكن عيناه تغادران منبهنا. وما أن تحين الساعة التاسعة بالضبط، حتى يطلق صفيراً طويلاً كإشارة على حلول موعـــد مغـــادرة جميع أهل القرية إلى الحقول.

حان الوقت! أتسمعونني؟ هكذا يطلق صراخه على نحـــو طقوســـي، باتجاه المنازل المحتشدة من كل ناحية. حان وقت الذهاب إلى العمل، يـــا زمرة الكسالى! ماذا تنتظرون بعد يا سلالة البقرة البلهاء!

لم نكن، (لو) وأنا، نحب كثيراً الذهاب إلى العمل في الجبل بدروبه الوعرة، الضيقة التي تصعد وتصعد إلى أن تتوارى في الغيوم، دروب يستحيل أن تدفع عربة صغيرة عليها وحيث الجسد الآدمي وهو وسيلة النقل الوحيدة.

كان أكثر ما يثير مخاوفنا، هو أن نحمل على ظهورنا الروث: دلاء خشبية، نصف أسطوانية، مصنوعة خصيصاً لنقل كل أنواع الأسمدة، بشرية كانت أم حيوانية. كل يوم يتوجب علينا ملء هذه الدلاء المعدة للحمل على الظهور، بالغائط المختلط بالماء وحملها على أعمدتنا الفقرية والصعود بها إلى الحقول التي غالباً ما تقع على ارتفاع شاهق. في كل واحدة من خطواتكم تصغون إلى السائل الغائطي يتلاطم داخل الدلو، بالضبط خلف آذانكم، متسرباً شيئاً فشيئاً من الغطاء لينساب على امتداد الجزع. قرائي الأعزاء سأعفيكم من مشاهد السقوط لأنه - كما بوسعكم أن تتخيلوا - من الممكن لكل خطوة في غير مكانها الصحيح أن تكون مصيرية.

ذات يوم، ومنذ الفجر، تذكرنا الدلاء التي تنتظرنا ففقدنا كل رغبة في النهوض. كانت الساعة التاسعة تقريباً حين تناهى إلى مسامعنا دنو خطوات المأمور وفيما كان الديك يومئ برأسه ببرود أعصاب باتجاه الوجبة تملكت (لو) فكرة عبقرية. رفع إصبعه الصغرى وأدار عقارب المنبه في الاتجاه المعاكس، بحيث أعادها ساعة إلى الوراء. واستأنفنا النوم. كم كانت ممتعة تلك الصباحية... زاد من جمالها معرفتنا أن المأمور في الخارج يقوم بالمائة خطوة وغليونه الطويل في فمه. هذا الفعل الجريء والأعجوبي الذي قمنا به محا تقريباً الضغينة التي كنا نحملها تجاه مزارعي الأفيون المرتدين، في ظل النظام الشيوعي، إلى

فلاحين فقراء والذين كانوا مكلفين بإعادة تأهلينا.

بعد ذلك الصباح التاريخي، غالباً ما كنا نعدل ساعات المنبه. كل شيء كان يعتمد على حالتنا الجسدية أو مزاجنا. كنا أحياناً عوضاً عن إدارة العقارب إلى الوراء، نجعلها ساعة أو اثنتين لكي ننتهي من عمل النهار في وقت مبكر. وهكذا مع عدم معرفتنا كم من الوقت بالضبط انتهى الأمر بنا إلى فقدان كل إحساس بالزمن الموضوعي.

كثيراً ما تتساقط الأمطار في جبل الفينيق، بمعدل يومين كل ثلاثة أيام. العواصف والزخات المباغتة نادرة الوقوع. فقط أمطار ناعمة، تتهاطل على وتيرة واحدة، ومن ذلك النوع الذي يقال أنه لا ينتهي أبداً. يصاحبه ضباب كثيف ومشؤوم تتوارى فيه أشكال النتوءات والصخور المحيطة بالمنزل. كان من شأن هذا المشهد في لا واقعيته، أن يصيبنا بكآبة قاتلة ناهيك عن أنه يشيع جواً من الرطوبة داخل المنزل، حيث نعيش، خلاله تأكل العفونة كل شيء محدقة بنا أكثر فأكثر.

كانت حياتنا فيه أسوأ من العيش في قعر قبو. في مناخ كهذا، يحدث أحياناً أن يجافي النوم (لو). عندها ينهض من سريره. يشعل مصباح الكيروسين ويزحف في نصف الظلمة على أربع تحت سريره، بحثاً عن عقب سيجارة، كان قد تركه يسقط. عند خروجه يتربع على السرير، يضع أعقاب السيجارة المتعفنة في ورقة – غالباً رسالة غالية من أسرته – ويجففها في لهب المصباح. ثم يهز الأعقاب مفرغاً بقايا التبغ بمهارة ودقة الصائغ دون أن يضيع منها أي فتات. بعد صنع السيجارة، يشعلها ثم يطفئ النور، ويشرع في التدخين، جالساً ومصغياً لصمت الليل الذي تتسرب من خلاله همهمة الخنزيرة – التي تعيش أسفل غرفتنا بالضبط – وهي تنقب بخرطومها في كوم من المخلفات.

من وقت إلى آخر يواصل المطر هطوله على نحو أغزر من المعتاد وتتواصل معه أزمة السيجارة.

ذات مرة أيقظني (لو) عند منتصف الليل.

- لم يعد هنالك أي عقب، لا تحت السرير ولا في أي مكان.
- وإذن؟
- أحس بالاكتئاب، ألا ترغب في أن تعزف مقطوعة بالكمنجة.

استجبت لطلبه في الحال. وفيما كنت أعزف، شرد ذهني الذي لم يكن صافياً تماماً وراح يفكر بآبائنا، آباؤه وآبائي: لو كان بوسع طبيب الأمراض الرئوية وطبيب الأسنان أن يريا في تلك الليلة، نور مصباح الكيروسين يتأرجح في منزلنا ذي الأوتاد. لو كان بوسعهم أن يسمعوا لحن الكمنجة هذا، مختلطاً بهمهمة الخنزيرة... بيد أنه لم يكن هنالك أحد. ولا حتى فلاحي القرية. كان أقرب منزل يقع على بعد مائة متر على الأقل.

كان المطر يتساقط في الخارج. بالمصادفة لم يكن المطر الناعم المعتاد، بل مطراً غزيراً، يُسمع وهو يضرب بعنف قرميد السقف، فوق رؤوسنا. لا شك أنه كان لهذا المطر دوره في مضاعفة كآبة (لو): كان محكوماً علينا أن نمضي كل حياتنا في إعادة التأهيل، في الأحوال العادية كان من الطبيعي لشاب ينتسب إلى عائلة عادية، عاملة أو مثقفة ولم يسبق له أن اقترف أي حماقة ومحظوظ بنسبة مائة في المائة (حسب تعبير الصحف الرسمية للحزب الحاكم) أن ينهي إعادة تأهيله خلال عامين قبل أن يعود إلى المدينة لرؤية عائلته. أما بالنسبة لأولاد العائلات المصنفة كـ(أعداء للشعب) فإن فرصة العودة كانت ضئيلة: ثلاثة من ألف. وهذا يعني أنه كان مقضياً علينا وما من شيء نتشبث به سوى الاحتمال المبهج في أن نشيخ ونصلع ونموت وننتهي ملفوفين في كفن

محلي أبيض داخل هذا البيت ذي الأوتاد.

كان التفكير في ذلك يدعو حقاً، إلى الإحساس بالكآبة والألم والعجز عن إغلاق العيون. ولقد عزفت، في تلك الليلة، أولاً قطعة لموزارت ثم واحدة لبرامز وسوناتا لبيتهوفن لكن حتى هذا الأخير لم ينجح في رفع معنويات صديقي.

- حاول أن تعزف أخرى، قال لي.

- ماذا تريد أن تسمع؟

- شيء أكثر مرحاً.

فكرت. نقبت في ذاكرتي الموسيقية البائسة. لكنني لم أجد شيئاً. حينئذ شرع (لو)، يدندن لازمة من أغنية ثورية:

- كيف تجد هذه؟ سألني.

- جيدة.

وصاحبته في الحال بالكمنجة. كانت أغنية تبتية قام الصينيون بتحوير كلماتها ليجعلوا منها مديحاً لمجد الرئيس (ماو). رغم ذلك ظل اللحن محتفظاً باحتفائها بالحياة، بسحرها الذي لا يقاوم. إذ أن عملية التحوير لم تكن قد أفضت إلى إفسادها كلية. وقف (لو) وقد أصبح أكثر فأكثر استثارة على سريره. وراح يرقص، دائراً حول نفسه، فيما كانت قطرات كبيرة من المطر، تتسرب إلى داخل المنزل خلال قرميد السقف رديء التلاحم. ثلاثة من ألف، فكرت على نحو فجائي. لدي ثلاثة احتمالات في النجاة من ألف، بينما مدخننا الكئيب المتنكر في هيئة راقص لديه أقل من ذلك. ربما ذات يوم، وعندما أُتقن العزف على الكمنجة، فرقة دعائية إقليمية أو محلية صغيرة، شبيهة بفرقة مقاطعة يونج جينج مثلاً، ستفتح أبوابها لي، كي أنخرط في عزف أغانٍ حمراء أما (لو) الذي لا يجيد العزف على الكمنجة ولا حتى لعبة كرة السلة أو كرة القدم فإنه لم يكن

مهيئاً لدخول المنافسة الشاقة لدرجة فظيعة، (الثلاثة من ألف). الأسوأ من ذلك أيضاً إنه لم يكن حتى بوسعه أن يحلم بذلك. موهبته الوحيدة كانت تتمثل في سرد القصص، إنها موهبة مسلية بالتأكيد. لكنها للأسف هامشية وليس لها مستقبل كبير. لم نعد - بعد - في عصر ألف ليلة وليلة. ففي مجتمعاتنا المعاصرة، (اشتراكية كانت أو رأسمالية) لم يعد الحكي لسوء الحظ وظيفة.

الرجل الوحيد في العالم الذي كان لا يزال يقدر حقاً مواهبه في الحكي لدرجة منحه مكافآت سخية، كان مأمور قريتنا، آخر السادة المولعين بالحكايات الشفهية الجميلة.

كان جبل فينيق السماء بعيداً عن المدينة إلى درجة أن الغالبية العظمى من سكانه لم يملكوا، ليس فقط، الفرصة لمشاهدة فيلم في حياتهم، بل لم يكونوا يعرفون ما هي السينما. كنا قد اعتدنا، (لو) وأنا، أن نحكي من وقت إلى آخر بعض الأفلام للمأمور، ولعابه يسيل لسماع المزيد. ذات يوم وبعد أن استعلم عن موعد العرض الشهري في مدينة يونج جينج، قرر أن يبعثنا إليها. كانت المدة الممنوحة لنا أربعة أيام، يومان للذهاب وآخران للإياب. هذا يعني أنه كان من المنتظر أن نشاهد الفيلم في المساء ذاته الذي نصل فيه إلى المدينة. وأن نحكيه للمأمور ولكل أهل القرية من الألف إلى الياء، فور عودتنا وفي زمن العرض بالضبط.

كنا على مستوى التحدي. من باب الحذر حضرنا العرض مرتين متتاليتين، على ساحة الألعاب الرياضية في المدرسة الثانوية للمدينة، التي كانت تتحول مؤقتاً إلى سينما في الهواء الطلق. كانت فتيات البندر فاتنات، بيد أننا ألزمنا أنفسنا بالبقاء مركزين على الشاشة بدرجة أساسية. منتبهين لكل حوار، لملابس الممثلين، لأقل حركة ولديكور كل مشهد وحتى للموسيقى المصاحبة.

عند رجوعنا إلى القرية، عُقدت جلسة للسينما الشفهية منقطعة النظير، أمام منزلنا ذي الأوتاد. كان كُل القرويين حاضرين بالطبع، وفي مقدمتهم المأمور الذي جلس في منتصف الصف الأول وفي إحدى يديه غليونه الطويل المصنوع من الخيزران وفي الأخرى منبهنا (الفينيق الأرضي) ليتحقق من المدة الزمنيةُ التي سيستغرقها عرضنا للفيلم.

استحوذ عليَّ الخوف، لذا ارتأيت أن أعرض فقط وبشكل آلي ديكور كل مشهد. أما لو فقد كشف عن موهبة فذة في الحكي: حكى قليلاً، لكنه تقمص كل الشخصيات بالتناوب، محوراً صوته وحركاته. كان يقود القصة، ناسجاً العقد، طارحاً الأسئلة، مستنطقاً الجمهور، مصححاً، من ثم، الإجابات. لقد قام بكل شيء. وحين أنهينا أو بالأحرى عندما أنهى الجلسة في الوقت المحدد بالضبط، انتابت مستمعينا مشاعر السعادة التي لم تفارقهم بعد ذلك.

- الشهر القادم سأرسلكم إلى عرض آخر وستحصلون مقابل ذلك على ما كنتما ستنالانه فيما لو عملتم في الحقول.

أعلن المأمور وقد علت وجهه ابتسامة ظافرة.

في البدء بدا لنا هذا الأمر شبيهاً بلعبة مسلية، أبداً لم نتخيل أن حياتنا - على الأقل حياة (لو) - كانت ستنقلب هكذا رأساً على عقب.

كانت أميرة جبل فينيق السماء ترتدي حذاءً، ذا لون وردي شاحب، بوسع المرء أن يتابع خلال قماشه الغليظ اللدن والمتين في نفس الوقت حركات إبهامي قدميها مع كل دفعة يقومان بها لدواسة آلة الخياطة التي

تعمل عليها. في الحقيقة كان حذاءً عاديا ومن النوع الرخيص، المصنوع يدوياً. إلا أنه كان يبدو – في هذا الإقليم حيث كل الناس يسيرون حفاة تقريباً – لافتاً للانتباه، رفيع المستوى ونفيساً. كان لكاحليها وقدميها شكل، تضفي عليه الجوارب النيولونية البيضاء مزيداً من الجمال. فيما تتدلى على ظهرها ضفيرة طويلة بسمك ثلاثة أو أربعة سنتمترات، متجاوزة ردفيها ومنتهية بشريط أحمر جديد وبراق من الساتان والحرير المعقوصين. كانت ما أن تنحني على الآلة حتى تنعكس على سطحها الصقيل ياقة قميصها الأبيض تحت وجهها البيضاوي بعينيه البراقتين اللتين كانتا بدون شك الأكثر جمالاً في إقليم يونج جينج إن لم يكن في كل المقاطعة.

كان يفصل قريتها عن قريتنا وادٍ فسيح. كان أبوها خياط الجبل الوحيد، لا يمكث غالباً في البيت، هذا المأوى الذي يستخدم كمتجر ومسكن في نفس الوقت. كان خياطاً مطلوباً للغاية. حين تريد إحدى العائلات أن تخيط لأحد أفرادها ملابس جديدة، كان عليها أن تذهب أولاً لشراء بعض القماش من أحد متاجر يونج جينج (المدينة التي كنا نحضر فيها العروض السينمائية)، ثم تأتي إلى الحانوت لتتناقش معه حول الأسلوب، الثمن والتاريخ المناسب لخياطة الملابس. وعندما يحين الموعد المحدد يأتون للبحث عنه منذ الفجر، مبدين له كل مظاهر التوقير ومصحوبين بعدة رجال أقوياء، يقع على عاتقهم حمل آلة الخياطة بالتناوب.

كانت لديه اثنتان منها، الأولى يحملها دائماً معه من قرية إلى أخرى، وهي آلة قديمة، لم يعد يقرأ عليها لا الماركة ولا اسم الصانع، فيما الأخرى جديدة، صناعة شانجهاي وكان يتركها في منزل لابنته (الخياطة الصغيرة). لم يكن يأخذ ابنته معه في جولاته. وهذا القرار الحكيم، رغم

قسوته، كان يصيب الفلاحين الشباب بالإحباط الذين كانوا يطمحون إلى استمالتها.

كان يعيش كملك. حين يصل إلى إحدى القرى يثير فيها من الحيوية مالا يقل عن عيد فلكلوري حيث يغدو منزل زبونه الذي تتعالى منه ضوضاء آلة الخياطة مركزاً للقرية إنها لمناسبة أمام هذه العائلة أن تستعرض ثراءها، فتراها تطبخ لأجله أفضل الوجبات. أما إذا تصادفت زيارته مع قدوم السنة الجديدة فإنها تذبح خنزيراً. كان على زبائنه أن يتناوبوا على استضافته. لذا فإن مدة إقامته في القرية كانت تبلغ أسبوع أو اثنين.

في أحد الأيام ذهبنا، (لو) وأنا، لرؤية بينوكلار، ابن مدينتنا الذي جاء إلى هنا ضمن حملة إعادة التأهيل. كان يستقر في قرية مجاورة لقريتنا. كان الجو ممطراً. فلم يكن أمامنا إلا أن نتقدم بخطوات صغيرة على الطريق الوعر، الزلق والمغلف بضباب حليبي. رغم حذرنا، سقطنا عدة مرات على أطرافنا الأربع في الوحل. وبينما كنا نجتاز أحد المنعطفات رأينا فجأة موكب مقبل باتجاهنا، يسير أفراده واحداً بعد الآخر، حاملين كرسياً متنقلاً يتربع عليه رجل في الخمسين من عمره. خلف كرسي السيد هذا يسير رجلٌ حاملٌ آلة الخياطة، مشدودة بالسيور إلى ظهره. حين وقعت نظرات الخياط علينا انحنى باتجاه حاملي الكرسي كما لو أنه يستفسر بخصوصنا. حينها بدا لي صغيراً. ناحلاً مغضناً لكن مليئاً بالحيوية. كان كرسيه – وهو نوع من هودج بسيط، مشدود إلى عمودين من الغاب الهندي، موضوعين في حالة توازن على أكتاف حمالين يسير أحدهما في الأمام والآخر في الخلف – يصدر صريراً على إيقاع الخطى البطيئة والراسخة للحمالين.

لحظة أن تقاطعنا مع الكرسي، انحنى الخياط فجأة باتجاهي إلى درجة دهمتني معها أنفاسه:

- Way – o – lin!

صرخ بالإنجليزية بكل ما أوتي من قوة، ثم انفجر بالضحك وقد رأى أن الرعد الوامض لصوته جعلني انتفض، تصرفه هذا جعله يبدو كسيدٍ حقيقي متقلب المزاج وغريب الأطوار.

- هل تعلمون أن خياط الجبل هذا هو أكثر من قام برحلات بعيدة؟

وجه أحد الحمالين سؤاله إلينا. دون أن يتيح لنا فرصة للإجابة، أعلن الرحالة الكبير من على كرسيه:

- في شبابي ذهبت إلى (ياآن)، على بعد مائتي كيلو متر من يونج جينج. كان معلمي يعلق على جداره آلة موسيقية مثل آلتك، لكي يبهر زبائنه.

ثم صمت وابتعد الموكب.

عند بداية المنعطف وبالتحديد قبل أن يختفي عن نظرنا استدار باتجاهنا صارخاً من جديد.

- Way – o – lin!

رفع حاملاه والفلاحون العشرة السائرون في موكبه رؤوسهم ببطء وأطلقوا صرخة عالية تشبه في تحورها تنهيدة متوجع أكثر منها كلمة إنجليزية.

- Way – o – lin!

مثل عصابة من الأطفال الأشقياء، انفجر هو ومرافقوه في ضحك مجنون، طأطأوا – بعده – رؤوسهم وقد اضطربت خطاهم قليلاً، ليتابعوا من ثم طريقهم في الضباب الذي سرعان ما ابتلع الموكب.

بعد بضعة أسابيع من ذلك اللقاء، ذهبنا إلى منزله بهدف إطالة بنطال

لو خمسة سنتيمترات لأن صاحبه وإن كان قد تعــرض لســوء التغذيــة والأرق وغالباً للخوف من المستقبل إلا أن ذلك لم يعقه عن النمو. كــان بانتظارنا في حوش المنزل كلب أسود، حدجنا بنظراته دون نبــاح. لــم يكن صاحبه العجوز موجوداً. كان كعادته في إحدى جولاته. تعرفنا على ابنته الخياطة الصغيرة وبما أنه كانت لدى لو مواهب فطرية فــي فــن المحاكاة فإنه ما أن قدم نفسه إليها حتى راح يحكي لها تفاصيل مقابلتنــا لأبيها في الضباب وتحت المطر دون أن يتمكن من منع نفسه من تقليــد لكنة العجوز وبشكل مبالغ فيه مما دعاها إلــى الانفجــار فــي ضــحك طروب.

لاحظت أنها حين تضحك، تفصح عيناها عن طبيعــة بدائيــة مثــل متوحشي قريتنا هؤلاء وعن نظرة قاسية قساوة المعدن غير المصــقول، مصحوبة ببريق الأحجار الكريمة. كان لأهدابها الطويلة والزوايا التــي ترتفع برقة عن العيون دور كبير في ترسيخ هذا الانطباع دون شك.

– لا تغضبوا منه – قالت لنا – إنه مجرد صبي عجوز.

وأعتم وجهها فجأة. أسبلت جفونها داعكةً بطرف إصبعها سطح آلــة الخياطة.

– ماتت أمي منذ وقت مبكر. ومن حينها فإنه لا يقوم إلا بما يسليه.

كان محيط وجهها الملوح، نقياً ويفصح عن نبل تقريباً. كمــا كانــت قسماته تشي بجمال حسّي مشفوع بمهابة جعلتنا عاجزين عــن مقاومــة رغبتنا في المكوث هناك، نشاهدها وهي تدوس على آلتهــا الشــانجهية الصنع.

كانت الحجرة تستخدم كحانوت ومعمل خياطة وصالة طعام في نفس الوقت، لذا كانت أرضيتها الخشبية متسخة وتُرى عليها آثــار البصــقات

الصفراء والسوداء التي يخلفها الزبائن في كل مكان. كان بالإمكان أن نحزر بأنها لم تكن تُنظف يومياً. كانت الملابس الجاهزة مثبتة بمعالق ومتدلية من حبل طويل يجتاز الغرفة من المنتصف. كانت هنالك أيضاً لفافات من القماش وملابس مثنية، تتكوم في الأركان وقد غزتها جيوش النمل. كانت الفوضى وغياب الحس الجمالي والاسترخاء الكلي تسيطر على هذا المكان. وفيما كنت أحدق في جوانبه لمحت كتاباً مرمياً على طاولة. أصابني هذا الاكتشاف بالدهشة. ففي هذا الجبل المأهول بالأميين، لم أكن منذ جئت إلى هنا، قد لمست صفحة من كتاب. دنوت منه في الحال غير أن النتيجة كانت على الأرجح محبطة: كان كاتالوج بألوان القماش طبع من قبل معمل صباغة.

– تجيدين القراءة؟

سألتها. أجابتني ببساطة:

– ليس كثيراً. لا تظنني غبية فأنا أحب كثيراً أن أثرثر مع شبان المدينة الذين يجيدون القراءة والكتابة. ألم تلاحظوا؟ أن كلبي لم ينبح حين دخولكم. أنه يعرف ذوقي.

كان واضحاً أنها لا تريد أن تتركنا نذهب. نهضت من مقعدها، أشعلت الموقد المعدني المستقر وسط الحجرة ووضعت قدراً على النار وملأته بالماء. سألها (لو)، الذي كان يلاحقها في كل خطوة من خطواتها:

– ماذا ستقدمين لنا؟ بعض الشاي أم ماءً فاتراً؟

– الاختيار الثاني على الأرجح.

كانت هذه علامة على الاستلطاف. ففي هذا الجبل، إذا دعاك شخص ما إلى تناول الماء فهذا يعني أنه سيكسر البيض في الماء الفاتر ويضيف إليه بعض السكر، ليعمل منه حساءً.

– هل تعلمين أيتها الخياطة الصغيرة أن لدينا شيئاً مشتركاً، أنت وأنا.

سألها (لو).

- نحن الإثنان.

- نعم؟ أتريدين أن نتراهن؟

- نتراهن على ماذا؟

- على ما تريدين. أنا متأكد أن بوسعي أن أُثبت لك أن لدينا شيئاً مشتركاً.

فكرت لحظة.

- إذا خسرت سأطيل بنطالك مجاناً.

- موافق - قال (لو) - والآن اخلعي فردة وجورب قدمك اليسرى.

بعد لحظة تردد، نفذت وقد بدت عليها علائم الاستغراب كشف لنا قدمها الذي كان أكثر خجلاً منها ومفعماً بالحسية عن خطوط تحده برقة، ثم عن كاحل جميل التكوين وأظافر براقة. كان قدماً صغيراً برونزي اللون ويشف بشكل طفيف عن أوردة زرقاء.

عندما وضع (لو) قدمه العظمية السمراء والمتسخة إلى جوار قدمها، لاحظت أن هنالك بالفعل وجه شبه: فالإصبع الوسطى كانت أطول من الأصابع الأخرى.

❁ ❁ ❁

بما أن طريق العودة كانت طويلة فقد غادرنا حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر، كي نصل إلى قريتنا قبل الغروب.

على الطريق سألت (لو):

- هل أعجبتك، الخياطة الصغيرة؟

تابع سيره، مطأطئ الرأس، ولم يجبني في الحال.

- أوقعت في حبها؟ سألته من جديد.

- إنها ليست متمدنة بالقدر الكافي، بالنسبة لي على الأقل!

بصيص من النور يتقدم بمشقة في قعر رواق ضيق، طويل، وغارق في الحلكة. يراوح في مكانه أحياناً. يهبط. يستعيد مكانـــه، ليتقـــدم مـــن جديد. لكن ما أن ينحدر الممشى بغتة حتى تختفي النقطة الضـــئيلة مـــن النور للحظة طويلة، حينئذ لا يُسمع إلا صريف سلة ثقيلة تُسحب، علـــى الأرض المغطاة بالحصى وهمهمة تطلع من أعماق رجل مع كل جهـــد يبذله، كان الصريف والهمهمة يترددان في الظلمة الحالكة مع الصـــدى الذي يحملهما إلى مسافة بعيدة.

فجأة، ظهر البصيص من جديد، مثل عين حيوان تبتلع الظلمة جسده، يسير متأرجحاً كما في الكوابيس.

كانت هذه النقطة من النور هي ضوء مصباح زيتي مشدود بواســـطة سير جلدي إلى جبين (لو) فيما يعمل داخل مـــنجم صـــغير لاســـتخراج الفحم. عندما يكون سقف الممر واطئاً أكثر من اللازم فإنه يحبـــو علـــى أربع. كان عارياً بالكامل ومحزماً بسير جلدي، يتغلغل بعمق في لحمـــه. بواسطة هذه العدة المرعبة، يسحب زنبيلاً كبيراً على شكل قارب، ممتلئاً بكتل كبيرة من الفحم الحجري.

عندما وصل إلى مستوى الارتفاع الذي أقف عليـــه، تناولـــت منـــه الزنبيل. كنت عارياً كذلك، ومغطى بسواد الفحم حتى أصغر ثنيـــة مـــن جسدي. رحت أدفع أمامي الحمولة عوضاً عن جرها بالحزام كما كـــان يفعل. للوصول إلى مخرج السرداب، كان علي أن أصعد مرتفعاً رأســـياً عالياً أحتاج لتسلقه إلى معونة (لو) الذي كان غالباً ما يعينني أيضاً علـــى الخروج من النفق وأحياناً في سكب محتويات السلة على كومة من الفحم في الخارج، لنتمدد بعدها منهكين تماماً وسط السحابة الكثيفة من الغبـــار التي نثيرها.

كما ذكرت من قبل، كان جبل فينيق السماء مشهوراً بمناجمه النحاسية التي حازت شرف دخول تاريخ الصين لكونها قُدمت هدية سخية من أول شخصية صينية، شاذة جنسياً وتنتمي إلى الوسط الرسـمي: إمبراطـور، غير أن هذه المناجم كانت قد تعرضت للاندثار منذ وقت طويل. وحـدها مناجم الفحم، وهي مناجم صغيرة تستثمر يدوياً، ظلت ملكية مشتركة لكل القرى، تزود الجبلين بالفحم. مثل شباب المدينة الآخرين، لم نتمكن، (لو) وأنا، من الإفلات من هذا الدرس في إعادة التأهيل الذي كان مقدراً له أن يستمر على مدار شهرين. لم يكن بوسع حتى نجاحنا في مادة (السـينما الشفوية) تأجيل هذا الاستحقاق.

في الحقيقة، كنا قد قبلنا أن ندخل هذه التجربة الجهنمية لرغبتنا فـي البقاء (في مجرى الأحداث) مع أن حظنا في العودة إلى المدينـة كـان يدعو إلى الرثاء. فهو لا يمثل سوى احتمال قدره (ثلاثة من ألـف). لـم نكن نتخيل ما سيترك علينا هذا المنجم من ندوب سوداء - لا تمحـى - بدنية ومعنوية بوجه خاص. حتى اليوم لا تزال هذه الكلمـات المرعبـة (منجم الفحم الصغير) تجعلني أرتعش من الخوف.

باستثناء مدخل المنجم حيث توجد جسور وأعمدة من جذوع أشـجار ضخمة، منحوتة بأشكال رباعية ومتضامة على نحو بسيط، تدعم كتلـة صخرية، بطول عشرين متراً، توشك على السقوط، فإن السرداب، أي ما يبلغ أكثر من ستمائة متر من الممرات، لم تكن تحظى بأي صيانة. كانت الأحجار تنذر بالسقوط، في أي لحظة، على رؤوسنا. لطالما سمعنا مـن المنجميين العجائز - وهم ثلاثة فلاحين كانوا يعملون، معنا، فـي نفـس المنجم، بالتنقيب عن عروق المعدن - عن حوادث مميتة حصـلت قبـل مجيئنا. لذا كانت كل سلة نخرجها من قاع السرداب بمثابة ضربة حـظ بالنسبة لنا.

ذات يوم، وفيما كنا نصعد كالمعتاد المنحدر الرأسي، يدفع كل منا أمامه سلة معبأة بالفحم، سمعت (لو) يقول إلى جواري:

- لا أدري لماذا، منذ مجيئنا إلى هنا، ولدي إحساس أنني سأموت داخل هذا المنجم.

أصابتني عبارته هذه بالخرس، أحسست ونحن نستأنف صعودنا، بالعرق يتصبب من مسامات جسدي، وقد انتقلت إليَّ منذ هذه اللحظة، عدوى خوفه من الموت هنا.

كنا نعيش مع الفلاحين المنجميين داخل عنبر نوم، هو عبارة عن خص متواضع من الخشب، مقام تحت نتوء صخري بحيث تشكل خاصرة الجبل إحدى جوانبه.

كنت حين أستيقظ،صباحاً، وأسمع قطرات ماء تتساقط على السطح المكون من لحاء الأشجار، أشعر بارتياح لأنني أكون بذلك قد تأكدت أنني لم أمت بعد، لكن ما أن أغادر الخص حتى لا أعود متأكداً من أنني سأعود إليه مساءً، أدنى شيء، من قبيل سماعي لعبارة في غير مكانها تصدر من أحد الفلاحين أو نكتة جنائزية أو ملاحظتي لأي تغير في الطقس، كل هذه الأشياء تأخذ في عينيَّ، أبعاد نبوءة أو إمارة تنذر بموتي.

يحدث لي أحياناً، بينما أكون منهمكاً في العمل، أن تنتابني هلاوس بصرية، فأصبح فجأة عاجزاً عن التنفس وأحس بالأرض رخوة تحت أقدامي. ما أن أدرك أن هذه دلائل على موت وشيك حتى أقتنع بأن ما أراه ليس سوى طفولتي تمر بسرعة جنونية أمام عينيَّ، كما يحدث للموتى أثناء احتضارهم. من شأن ذلك بالطبع أن يجعل الأرض المطاطية تتمدد أكثر فأكثر تحت أقدامي، أسمع بعدها، أعلى مني، انفجار ضوضاء مصمّة، كما لو أن السقف ينهار. عندها أحبو على أربع مثل مجنون، بينما أرى وجهيَّ

أمي وأبي يتتابعان على القاع الأسود للمنجم لبضع ثوان، لتتلاشى، من ثم، الرؤى الغامضة: عارٍ مثل دودة، أستأنف دفع سلتي باتجـاه المخـرج، لا شيء يجعلني أتمالك نفسي سوى أن أرى، تحت النور المتذبذب لمصـباح الكيروسين الذي أحمله، نملة بائسة تصعد بتؤدة، مدفوعة بإرادة الحياة.

ذات يوم، حواليَّ الأسبوع الثالث من بدء عملنا في المنجم تناهى إلـى مسمعي بكاء آتياً من عمق السرداب، دون أن أرى في الجهة التـي يـأتي منها أي نور.

لم يكن زفير اضطراب ولا نواح شخص جريح. كـان بكـاء منفلتـاً، ينسكب في دموع حارة في الظلمة الحالكـة، ليتحـول عنـد اصـطدامه بالجدران إلى صدى طويل يتصاعد من قاع السرداب، ذائباً، متكثفاً وآيـلاً إلى جزء من الظلمة المطبقة والعميقة. أدركت عندها أن من يبكـي هـو (لو).

عند نهاية الأسبوع السادس. وفيما كنا نتناول وجبة الغداء، تحت شجرة في مواجهة مدخل المنجم، ظهرت على (لو) بوادر إصابته بالملاريا. فـي البدء، اشتكى من الشعور بالبرد. دقائق قليلة وشرعت يده بالارتعاش. لـم يعد بمقدوره الإمساك لا بأعصيته ولا بسلطانية الأرز. عندها نهض قاصداً عنبر النوم كي يتمدد على سريره. سار بخطوات متأرجحة وفـي عينيـه تعبير غير محدد يشبه الزغللة، عندما وصل إلى أمـام المـدخل الكبيـر، المفتوح، لعنبر النوم. طلب بصوت عال من شخص غير مرئي أن يسـمح له بالدخول مما أثار ضحك الفلاحين – المنجميين الذين كـانوا يتنـاولون طعامهم تحت الشجر.

- إلى من تتحدث؟ سألوه. ما من أحد هناك.

تلك الليلة، رغم الأغطية العديدة، وفرن الفحم الكبير، لـم يكـف عـن

الشكوى من البرد. حوار طويل وبصوت خافت دار بين الفلاحين حول جدوى أخذه إلى النبع ودفعه على غفلة منه في الماء المثلج. حسب رأيهم كان من شأن الصدمة المتوقعة أن تنتج تأثيراً شافياً في الحال. غير أن هذا الاقتراح استبعد، خشية رؤيته يغرق في الظلام الدامس.

خرج أحد الفلاحين وعاد وفي يديه غصنان (أحدهما غصن خوخ والآخر من الصفصاف أغصان الأشجار الأخرى غير ملائمة) – هكذا وضح لي – ثم أنهض (لو)، خلع سترته وبقية ملابسه وساط ظهره العاري بالغصنين.

– أكثر قوة! إذا جلدته برقة زيادة فلن تطرد المرض.

صرخ الفلاحان الآخران وهما يقفان إلى جواره.

كان الغصنان يفرقعان في الهواء واحداً بعد الآخر، بالتناوب. أصبح الجلد، قاسياً، يخلف حزوزاً داكنة الحمرة في جلد (لو) الذي أفاق، متلقياً الضربات دون رد فعل خاص، كما لو كان يشاهد، في حلم، مشهداً يجري فيه جلد شخص آخر. لم أكن أعرف ما الذي يدور في رأسه. لكنني شعرت بالخوف وعادت إلى بالي العبارة التي كنت سمعتها منه في السرداب قبل بضعة أسابيع، وأخذت ترن في الضوضاء المبرحة للجلد: (لدي إحساس أنني سأموت داخل هذا المنجم).

استدار الفلاح وقد نال منه الإرهاق، ليرى من سيأخذ مكانه. لم يتقدم أحد لمتابعة المهمة. كان الفلاحان الآخران قد لاذا بسريريهما يريدان النوم. حينئذ، أمسكت الغصنين بيدي وقبل الشروع في الجَلد، رأيت (لو) يرفع رأسه. كان وجهه شاحباً، تتلألأ على جبينه قطرات ناعمة من العرق. تقاطعت نظرته الغائبة مع نظرتي:

– ماذا تنتظر؟

قال لي بصوت يسمع بالكاد.

– ألا تريدني أن أريحك قليلاً؟ (سألته) أنظـر إلـى أي مـدى يـداك ترتعشان. ألا تحس بهما؟

– لا – قال لي رافعاً إحداهما أمام عينيه ليتفحصها – حقاً أنا أرتعـش وأشعر بالبرد مثل عجوز يوشك على الموت.

وجدت عقب سيجارة في جيبي، أشعلته وناولته إياه لكنه أفلت في الحال من أصابعه وسقط على الأرض.

– سحقاً! إنها ثقيلة جداً.

– أتريد أن أجلدك حقاً؟

– نعم، إنَّ ذلك يمنحني بعض الدفء.

قبل أن أشرع في جَلده، انحنيت والتقطت العقب الذي لم يكن قد انطفأ. فاصطدمت نظراتي بشيء ما مائل إلى البياض، ينزوي عند أحـد قـوائم السرير. التقطته. كان ظرفاً لم يفتح بعد مكتوباً عليه اسـم (لـو). سـألت الفلاحين من أين جاء. أجابني أحدهم وهو على سريره أن رجلاً جاء قبـل بضع ساعات لشراء بعض الفحم، ووضعه هناك.

فتحته، وجدت فيه رسالة تتكون من صفحة بالكـاد، مكتوبـة بـالقلم الرصاص. كانت الكتابة تكتظ في مواضع معينة وتترك فيما بينها فسـحة في مواضع أخرى، بشكل عام لم يكن الخط جميلاً، لكن تفوح مـن عـدم المهارة هذه رقة أنثوية تنساب بعفوية طفولية. على مهل قرأتها لـ(لو):

حكواتي الأفلام (لو).

لا تسخر من خطي، فأنا لم أذهب مثلك إلى المدرسة أبداً. أنت تعلـم أن المدرسة الوحيدة القريبة من جبلنا هي مدرسة مدينـة يـونج جيـنج، وأن الذهاب إليها يستغرق يومين. إن أبي هو من علمنـي القـراءة والكتابـة.

بوسعك أن تضعني ضمن حملة (الشهادة الابتدائية).

سمعت مؤخراً، من يقول أنك ورفيقك تحكيان الأفلام بشكل يثير الإعجاب. لذا ذهبت إلى مأمور قريتنا لأتحدث إليه بهذا الخصوص. لقد وافق بأن يرسل اثنين من الفلاحين ليحلا مكانكما في المنجم الصغير لمدة يومين فيما ستأتيان إلى قريتنا لتحكيا لنا فيلماً.

أردت الصعود إلى المنجم لأحمل لكما الخبر بنفسي لكن قيل لي أن الرجال عراة تماماً هناك، وأنه من غير المسموح للفتيات الصعود إليه.

حين أفكر في المنجم، أعجب بشجاعتك. الشيء الوحيد الذي أتمنى، أن لا ينهار. لقد وفرت لكم يومين من الراحة، وهذا يعني اختصار يومين من المخاطر على الأقل. اراك قريباً. تحياتي لصديقك عازف الكمنجة.

<u>**الخياطة الصغيرة**</u>

١٩٧٢/٧/٨

انتهيت، قبل قليل من كتابة كلماتي القليلة، لكنني أفكر بشيء مسل أقوله لك: منذ زيارتك، رأيت عدة أشخاص لديهم، أيضاً، إصبع وسطى أكثر طولاً من بوصة، مثلنا. أشعر بالإحباط، لكنها الحياة.

وقع اختيارنا على حكاية بائعة الزهور الصغيرة.

كنا، حتى الآن، قد شاهدنا ثلاثة أفلام على ساحة ملعب كرة السلة في يونج جينج، أكثرها شعبية كان عبارة عن ميلودراما كورية شمالية، شخصيتها الرئيسية تسمى (فتاة الزهور) كنا قد حكيناها من قبل لفلاحي قريتنا. أتذكر أنني عندما نطقتُ العبارة الختامية، محاكياً الصوت العاطفي والقدري (أوف) مع اهتزاز خفيف في الحبال الصوتية: (الحكمة تقول: بوسع قلب صادق أن يجعل الحجر يزهر. مع ذلك، ألم يكَن قلب فتاة الزهور صادقاً بما فيه الكفاية؟). أحدثت تأثيراً يعادل في شدّته ذلك الذي أحدثته في العرض الحقيقي. إذ بكى المستمعون، بما فيهم مأمور القرية الذي لم يستطع، رغم قسوة قلبه، أن يمنع الانسياب الحار للدموع، من عينه اليسرى، الموسومة دائماً بثلاث قطرات من الدم. لم تكن نوبات الحمى قد زايلت (لو) غادر بصحبتي إلى قرية الخياطة الصغيرة، مبدياً حماساً عارماً. كان يعتبر نفسه الآن في طور النقاهة. مع ذلك انتابه في الطريق نوبة جديدة من الملاريا. معها اعتراه البرد من جديد، برد لم تحد من غلوائه أشعة الشمس الحارقة التي كنا نسير تحتها. عندئذ لجأت إلى إيقاد نار – من أغصان الأشجار والأوراق اليابسة – إلى جانب الطريق وأجلسته إلى جوارها، لكن بدلاً من أن يتناقص شعوره بالبرد، صار عاجزاً عن احتماله.

– لنستمر.

قال لي من بين أسنانه المصطكة.

أستأنفنا السير مصعين طوال الطريق إلى هدير السيول. وصرخات القرود وحيوانات برية أخرى. كان (لو) يسير في المقدمة مجرباً التتابع

المزعج البرودة والحرارة. كنا مشرفين على منحدر عميق يمتد تحت أقدامنا حين رأيت كتلة صخرية تنهار وتتدحرج مجتازة الطريق أمام (لو)، مستأنفة سقوطها نحو قعر الهاوية الذي كان من العمق، بحيث توجب علينا أن ننتظر وقتاً طويلاً لمتابعة ضوضاء سقوطها. عندها أوقفته وأجلسته على صخرة في انتظار مرور نوبة حماه. عند وصولنا إلى منزل الخياطة الصغيرة، تلقينا بسعادة خبر غياب والدها عن المنزل – كعادته – اقترب منّا كلب أسود يشمنا دون إصدار أدنى نباح.

كان وجه (لو) لحظة دخوله المنزل أكثر تلوناً من فاكهة قرمزية. كان يهذي. كانت أزمة الملاريا قد خلفت عليه من التلف ما أصاب الخياطة الصغيرة بصدمة، وجعلها تلغي جلسة (السينما الشفهية) في الحال. أجلَست لو في غرفتها على سرير محاط بناموسية بيضاء. طوت جديلتها الطويلة وكومتها في قمة رأسها في ذؤابة عالية جداً. خلعت أحذيتها الوردية وجرت عارية القدمين إلى الخارج.

– تعال معي – نادتني – أعرف شيئاً ذا تأثير شاف لحالته.

كانت عبارة عن نبتة شعبية بشعة تنمو إلى جانب جدول ليس بعيداً عن قريتها: شجيرة بارتفاع ثلاثين سنتمتراً بالكاد، لها زهور بلون وردي متوهج، وبتلات تستدعي إلى الذهن أزهار الخوخ وإن كانت تبدو أكبر حجماً فيما هي منعكسة في المياه السائلة والضحلة للجدول. الجزء الدوائي الذي كانت الخياطة الصغيرة قد جمعت كمية كبيرة منه، كان عبارة عن أوراق ذات زوايا بنهايات مدببة تشبه أقدام البط.

– ما اسمها؟ سألتها.

– (بريق السلطانية المهشمة).

سحقتها بمدق من الحجر الأبيض. عندما تحولت إلى نوع من العجينة

الخضراء، أحاطت بها الرسغ الأيسر لــ(لو) الذي كان لايــزال يهــذي. لكن ما أن أحس بلمستها حتى استعاد وعيه وتركها تضمد رسغه بعصابة طويلة من الكتان الأبيض.

عند المساء هدأ تنفس لو، ونام.

- أتؤمن بهذه الأشياء...

سألتني الخياطة الصغيرة بصوت متردد.

- أي نوع من الأشياء...؟

- هذه الغير واقعية تماماً.

- مرات نعم، ومرات لا.

- ربما كنت خائفاً من أن أوشي بك.

- مطلقاً.

- وإذن؟

- أعتقد أنه ليس بالوسع الإيمان بها كاملة ولا إنكارها كاملة.

بدا على محياها أنها تتفهم موقفي. ألقت نظرة على السرير حيث ينام (لو) وسألتني:

- أب (لو) ماذا يكون؟ بوذي؟

- لا أعرف. لكنه طبيب أسنان كبير.

- ماذا؟ طبيب أسنان؟

- لا تعرفين ماذا يعني طبيب أسنان؟ إنه يعالج الأسنان.

- حقاً؟ أتريد أن تقول بوسعه أن ينتزع الديدان المخبأة داخل الأسنان والتي تسبب الألم؟

- هو كذلك - أجبتها دون أن أضحك - سأبوح لك بسر ايضاً، لكــن عليك أن تقسمي بأن لا تتفوهي به على مسامع أحد.

- أقسم بذلك.

قلت لها بصوت خافت:

- انتزع الديدان من أسنان الزعيم (ماو).

بعد لحظة صمت، مقرونة بالإجلال، سألتني:

- لو جئت بالساحرات كي يسهرن على إبنه هذه الليلة، ألن يغضبه ذلك؟

مرتديات تنورات طويلة، سوداء وزرقاء والشعر مرصع بالزهور، وفي معاصمهن أساور من حجر اليشم، أربع عجائز آتيات من ثلاث قرى مختلفة أحطن - حوالي منتصف الليل - بـ(لو) الذي كان ينام نوماً متقطعاً على الدوام. انفردت كل واحدة منهن بركن من السرير وأخذن يراقبنه من خلال الناموسية. كان من الصعب الجزم أيهن أكثر تغضناً وشناعة بحيث تكون الأكثر إشاعة للخوف في الأرواح الشريرة.

إحداهن، وهي دون شك الأكثر قزامة، كانت تمسك في يدها بقوس وسهم، قالت لي:

أضمن لك أن الروح الشريرة للمنجم الصغير التي أصابت رفيقك بالألم لن تتجرأ على الاقتراب من هنا هذه الليلة. قوسي من التبت وسهمي ذو حربة فضية. حين أطلقه، ينطلق مثل ناي طائر، مصفراً في الهواء مخترقاً صدور الجنيات مهما كانت القوة التي يتمتعن بها.

بيد أن عمرها الكبير والساعة المتأخرة من الليل لم يسعفاها على القيام بذلك. رغم الشاي القوي الذي أعدته مضيفتنا للشرب غزا التثاؤب زميلاتها. شيئاً فشيئاً، استولى عليهن النوم. صاحبة القوس نامت هي الأخرى بعد أن وضعت سلاحها على حافة السرير وتركت جفونها المترهلة والمطلية بالأصباغ تنغلق بتثاقل.

– أيقظهن. أحكِ لهن أحد الأفلام.

طلبت مني الخياطة الصغيرة.

– أي فيلم؟

– لا أهمية لذلك، المهم إيقاؤهن مستيقظات.

حينئذ بدأتْ الجلسة الأكثر غرابة في حياتي.

أمام السرير الذي كان صديقي غارقاً في الغيبوبة عليه، حكيت الفيلم الكوري الشمالي، لفتاة لطيفة وأربع ساحرات عجائز مضاءات جميعاً بمصباح كيروسين يتأرجح داخل قرية محاطة بالجبال العالية.

تدبرت أمري على نحو لا هو بالجيد ولا بالرديء. ففي بضع دقائق، كانت قصة هذه البائسة (فتاة الزهور) قد استحوذت على انتباه مستمعاتي حتى أنهن طرحن عليَّ بعض الأسئلة، وهكذا كنت كلما تقدمت في الحكاية كلما أصبحت غمزاتهن أقل فأقل.

مع ذلك لم يكن للسحر من تأثير على (لو) ما لتأثير الحكاية عليهن.

لم أولد راوياً مثل (لو). لم أكن هو. بعد نصف ساعة وفيما كانت (فتاة الزهور) تُعرِّضْ نفسها للكثير من الشقاء في سبيل الحصول على قليل من النقود، وصلت مجرى الأحداث إلى المستشفى. غير أن أمها كانت قد ماتت بعد أن لفظت بصوت عال وبيأس اسم ابنتها. كان فيلماً دعائياً من النوعية الجيدة. كان من المفترض أن تتمثل الذروة الأولى للقصة في هذا المشهد الذي ما أن يتم الوصول إليه – سواء أثناء العرض السينمائي أو في قريتنا حتى يشرع الناس في البكاء. ربما كانت الساحرات قد جُبلن من مادة مختلفة. فمع أنهن أصغين إليَّ بانتباه، مبديات بعض التأثر الذي أحسست معه برعدة خفيفة تسري في فقراتهن

الظهرية إلا أن دموعهن لم تكن على الموعد.

شعرت بالإحباط وقد انتابني الشعور بعدم الجدارة، لذا أضفت تفصيلاً عن يد الفتاة التي كانت ترتعش، عن التذاكر التـــي انزلقــت مــن بــين أصابعها... غير أن مستمعاتي حافظن على مناعتهن ضد الدموع. فجــأة ومن داخل الناموسية البيضاء ارتفع صوت بدا كما لو أنه خارجــاً مــن قعر بئر.

المثل يقول – وارتعشت الحبال الصوتية لــ(لو) – إن بوســع قلــب صادق أن يجعل حجراً يزهر. لكن أخبروني ألم يكن قلب (فتاة الزهور) هذه صادقاً بما فيه الكفاية؟.

دهشتي لكونه نطق العبارة قبل أوانها تضاعفت أكثر بيقظته المفاجئة. بيد أن ذلك لا يقارن بالذهول الذي اعتراني وأنا أشاهد الساحرات الأربع يبكين ودموعهن تنهمر بغزارة، كما لو أن سدوداً انهارت وتحولت إلــى سيول على وجوههن الشائهة والمنجرفة.

يالموهبة (لو) في الحكي! كان بوسعه الاســتحواذ علــى الجمهــور مغيراً، ببساطة، مخرج الصوت (أوف) فيما هو مجنــدل تحــت نوبــة ملاريا شديدة.

استأنفتُ سرد القصة التي أخذت، منذ تلك اللحظة، تتقــدم بسلاســة. لاحظت أن شيئاً ما في الخياطة الصغيرة قد تغير إذ لــم يعــد شــعرها مضفوراً في جديلة طويلة كما كان من قبل وإنما محلولاً في جزة وفيرة، عرف فاخر، منفوش على أكتافها. حزرت ما كان (لو) قد فعلــه، فيمــا كانت يده المحمومة تتنزه خارج الناموسية. فجأة، أثار تيار من الهــواء اخترق الغرفة الاضطراب في لهب المصباح الذي ما أن انطفأ حتى خيل

إلي أنني أرى الخياطة الصغيرة ترفع جانب الناموسية، منحنية في الظلام باتجاه (لو) لتمنحه قبلة مسترقة.

أعادت إحدى الساحرات إشعال المصباح، لأستأنف من ثم ولوقت طويل سرد قصة الفتاة الكورية. ومن وقتها لم تنقطع التدفقات الدمعية للنساء، ممتزجة بسيلان مناخرهن، ناهيك عن ضوضاء التمخاط.

الفصـــل الثانـــي

كان (بينوكلار) يمتلك حقيبة يخفيها بعناية ويحيطها بالتكتم. صديقنا (بينوكلار)، هل تذكروه؟ لقد ذكرت اسمه من قبل، عند حديثي عن لقائنا مع والد الخياطة الصغيرة، ونحن في طريقنا إليه.

كانت القرية التي يُعاد تأهيله فيها، تقع عند خاصرة جبل الفينيق، أي أسفل قريتنا بمسافة طويلة. غالباً ما كنا، (لو) وأنا، نذهب مساءً لنعد وجبة العشاء في منزله، خاصة عندما تكون لدينا قطعة من اللحم، قارورة من الكحول أو ننجح في سرقة بعض الخضروات الناضجة من بساتين الفلاحين، عندها نتقاسمها معه كما لو كنا عصابة مكونة من ثلاثة أفراد. ما كان يثير استغرابنا كثيراً أن يخفى عنا وجود هذه الحقيبة السرية.

كانت عائلته تعيش في نفس المدينة التي يعمل فيها آباؤنا، كان والده كاتباً وأمه شاعرة. حديثاً أصبحوا من المغضوب عليهم من قبل السلطات، وبهذا يكونا قد ورَّثا لولدهما المحبوب (ثلاثة حظوظ من الألف)، لا أكثر ولا أقل من (لو) وأنا. إزاء هذه الكارثة التي لحقت بوالديه، أصبح (بينوكلار)، الذي كان في الثامنة عشرة من عمره، فريسة للخوف بشكل دائم. حين نكون إلى جانبه فإن كل شيء يأخذ لون الخطر، ونغدو فيما نحن مجتمعين في مسكنه حول مصباح الكيروسين أشبه بأوغاد ثلاثة يدبرون مؤامرة من نوع ما. لنأخذ – مثلاً – الوجبات: إذا ما طرق شخص ما على الباب في اللحظة التي نكون فيها مغلفين برائحة ودخان وجبة من اللحم،دسمة ووفيرة، قمنا بطبخها بأنفسنا، بحيث تغرق الثلاثة الجوعى الذين نمثلهم في متعة شهوانية، فمن شأن هذه الطرقات أن تنسج في أعماقه من الخوف ما يفوق الاعتيادي. بحيث

يقوم، في الحال، باخفاء اللحم، في زاوية من المنزل، كما لو كان غلة مسروقة، ليستبدله بوجبة بائسة من الخضروات المخللة، المزبدة والنتنة. كان تناول اللحم، بالنسبة له، فعلاً من شأنه أن يلصق به تهمة البرجوازية التي كانت عائلته تنتمي إليها.

في اليوم التالي لجلسة السينما الشفهية مع الساحرات الأربع، أحس (لو) بالتحسن وأراد الرجوع إلى القرية. لم تلح الخياطة الصغيرة علينا بالبقاء. أتخيل أنها كانت ميتة من التعب.

بعد وجبة الإفطار، تابعنا، (لو) وأنا، طريقنا المتوحد. بمجرد تماسنا مع الهواء الندي للصباح، استشعرت وجوهنا المتوهجة طراوة مبهجة، أغرت (لو) على إشعال سيجارة، راح يدخنها، نازلاً الطريق الذي ينحدر تدريجياً، ليعاود، من ثم الصعود، مسفراً بين وقت وآخر عن انحدرات حادة ومباغتة، اضطرتني أن أسنده بيدي بين وقت وآخر. كانت الأرض رخوة ورطبة فيما كانت الأغصان تتداخل فوق رؤوسنا.

عند مرورنا أمام قرية (بينوكلار)، رأيناه في أحد حقول الأرز، يحرث التربة بمعونة ثور أسود يجر وراءه محراثاً بمشقة. كان حرّاثنا يتنقل وراء المحراث، بجذع عار وسروال فقط، غائصاً في الطين حتى ركبتيه فيما زجاجات نظارته تعكس أولى أشعة الشمس بوميض يظهر ويختفي. لم يكن بوسع عيوننا أن ترى الأثلام التي يخلفها المحراث، لأن مياه راكدة وثخينة وبعمق خمسين سنتيمتراً تقريباً، تعلوها طبقة من الطين الناعم – كانت تغطي الحقل.

كان حجم الثور عادياً، بيد أنه كان يمتلك ذيلاً بطول غير مألوف، يهزه مع كل خطوة، كما لو بقصد أن يدفع ببعض الطين وقذارات أخرى، في وجه سيده المهذب القليل الخبرة. رغم الجهود التي كان

(بينوكلار) يبذلها لتحاشي الضربات، فإن ثانية واحدة من عـدم الانتبـاه كانت كافية لكي يتلقى جلدة بذيل الثور، طيرت نظارته في الهواء. رمى (بينوكلار) سُبة، تزامنت مع سقوط الأعنة من يده اليمنى ومن اليسـرى للمحراث. رفع يديه إلى عينيه وأطلق صرخاتٍ وولول بكلمات سـوقية كمن أصيب بغتة بالعمى.

بلغ به الغضب حداً لم يسمع معه نداءاتنا المفعمة بالمودة وببهجـة أن نصادفه في طريقنا. كان يعاني من قصر نظر خطير لم يكن قادراً معه، حتى وهو يحملق قدر استطاعته، التعرف علينا من مسافة عشرين متراً، ويميزنا عن الفلاحين الذين كانوا يعملون فـي حقـول الأرز المجـاورة والذين ما أن رأوا ما جرى له حتى راحوا يتبادلون النكات الساخرة.

انحنى (بينوكلار) على سطح الماء، غمسَ يديه فيه، وراح يتحسـس بعمى في الطين المحيط به. كانت عيناه اللتان فقدتا كل تعبير إنسـاني، جاحظتين كما لو أصابهما ورم، وهو ما أثار فيَّ الخوف.

لا أن (بينوكلار) كان قد أيقظ لدى الثور ميلاً سادياً إذ اسـتدار هـذا الأخير على أعقابه، جاراً وراءه المحراث. كان يبدو كم لو أن لديه النية في أن يدوس بأقدامه النظارة المنتزعة أو أن يحطمها بالسن الحاد لسحب المحراث.

خلعت حذائي، وشمرت أسفل بنطالي ودخلت الحقل، تاركاً مريضـي جالساً إلى جانب الطريق. لم يشأ (بينوكلار) أن أحشر نفسي في البحـث الذي صار مضنياً الآن، بيد أنني أنا من داس على العوينات فيما كنـت أتحسس في الطين. لكنها لحسن الحظ لم تكسر.

حالما أصبح العالم الخارجي مرئياً بوضوح، أبدى (بينوكلار) دهشته وهو يرى إلى أي حد أوصلت الملاريا (لو).

- أقسم أنك هالك! قال له.

لم يكن قد حان بعد أوان مغادرة (بينوكلار) لعمله، لذا اقترح علينا الذهاب للراحة في مسكنه إلى حين عودته.

كان منزله يقع في وسط القرية، ويحتوي على القليل جداً من الأغراض الشخصية. مع ذلك كان يستحوذ على (بينوكلار) وسواس التظاهر بالثقة الكلية بالفلاحين الثوريين. حتى أنه لم يكن يغلق بابه بالمفتاح أبداً. كان المنزل، وهو مخزن قديم للحبوب، مشيداً على أوتاد مثل منزلنا، لكن بشرفة تستند على أعمدة من خشب الغاب الهندي، يتم عليها تجفيف الحبوب والخضروات أو الفلفل.جلسنا، (لو) وأنا، على الشرفة في أشعة الشمس الدافئة التي سرعان ما اختفت بعد قليل وراء الجبال، تاركة المكان لجو بارد. في لمح البصر جف عرق (لو) وتثلج ظهره وذراعاه وساقاه الهزيلتان. عثرت على كنزة صوفية تخص (بينوكلار) غطيت ظهره بها، طاوياً أكمامها حول عنقه مثل شال.

مع أن الشمس عادت إلى الظهور إلا أنه استمر في الشكوى من البرد. دلفت إلى الغرفة ثانية. دنوت من السرير وتناولت بطانية. خطرت في بالي فكرة أن أرى أن كانت هنالك كنزة أخرى في مكان ما. ألقيت نظرة تحت السرير، فوقع نظري على صندوق خشبي كبير، شبيه بذلك الذي يستخدم لخزن السلع عديمة الجدوى. صندوق بطول حقيبة، لكنه أكثر عمقاً، تتكدس داخله عدة أزواج من الجوارب الرياضية والأحذية المنزلية البالية والمغطاة بالطين والقذارة. بمجرد أن فتحته حتى كشف، تحت أشعة الضوء التي تتراقص في مساراتها ذرات الغبار، عن داخل ممتلئ بالملابس. رحت أنقب عن كنزة صغيرة بوسعها أن تمتلئ بجسد (لو) الهزيل، فاصطدمت أصابعي بغتة بشيء ما ناعم، لدن

وصقيل، ذكرني، في الحال، بنوع من الأحذية النسائية مصنوع من جلد الغزال. بيد أنه لم يكن كذلك، كانت حقيبة أنارتها بضع أشعة من نور الشمس، حقيبة أنيقة بجلد بالٍ لكن رقيق، تفوح منها رائحة مدنية بعيدة. كان وزنها ثقيلاً قياساً إلى حجمها، وهذا ما أثار استغرابي، لكن استحال عليّ معرفة محتواها، لأنها كانت مغلقة بإحكام من ثلاثة أماكن.

انتظرت حلول الليل حيث يكون (بينوكلار) قد تحرر من صراعه مع الثور، كي أسأله عن نوعية الكنز الذي يخبئه بتكتم شديد داخل هذه الحقيبة. دهشت وأنا أراه يمتنع عن الإجابة، فطيلة الوقت الذي أمضيناه في إعداد وجبة العشاء ظل غارقاً في خرس غير معتاد، حريصاً بالأخص على أن لا ينطق بأقل كلمة تتعلق بالحقيبة.

أثناء تناول العشاء، أعدت طرح السؤال، بيد أنه لم يقل شيئاً.

- أفترض أنها كتب - قال (لو) قاطعاً الصمت - الكيفية التي تخبئها بها والقفل ذو المغالق كل هذا كافٍ لفضح سرك: إنها تحتوي على كتب ممنوعة بالتأكيد.

لدى سماع ذلك مرق في عيون (بينوكلار) وميض فزع، اختفى تحت زجاجات نظارته بينما انقلب وجهه إلى قناع مبتسم.

- إنك تحلم يا عزيزي.

قال ذلك ومد يده ناحية (لو) ووضعها على صدغه:

- يا إلهي، أي حمى! لهذا السبب أنت تهذي وتنتابك هلاوس حمقاء أيضاً. اسمع، أن نكون صديقين رائعين، يعني أن نتسلى معاً، أما إذا بدأت بالتفوه بحماقات عن كتب ممنوعة، فلتحل اللعنة عندها.

في اليوم التالي، اشترى (بينوكلار) من أحد الجيران قفلاً نحاسياً، ولمزيد من الحيطة أغلق بابه بسلسلة تمر خلال الحلقة المعدنية لمغلاق الباب.

بعد أسبوعين من ذلك، أثبت (بريق السلطانية المهشمة) الذي اقترحته الخياطة الصغيرة فعاليته في علاج ملاريا (لو). فما أن انتزع الضماد عن معصمه حتى اكتشف تحته انتفاخاً شفافاً ومتلألئاً وبحجم بيضة عصفور، أخذ يتقلص شيئاً فشيئاً وحين لم يتبق منه سوى ندبة سوداء على بشرته، كفت النوبات عن معاودته نهائياً. بهذه المناسبة تناولنا وجبة العشاء في منزل (بينوكلار)، ونمنا هناك كذلك، متزاحمين ثلاثتنا على سريره. كان الصندوق الخشبي لا يزال متوارياً تحته لكن الحقيبة الجلدية لم تكن هناك.

❁ ❁ ❁

يقظة (بينوكلار) المتنامية وريبته بنا، رغم المودة التي كنا نكنها لـه، أكّدت فرضية (لو): الحقيبة ممتلئة بالكتب الممنوعة، دونما شك. غالباً ما كنا، (لو) وأنا نتحدث عنها، دون أن نصل إلى تخيل أي نوع من الكتب تحتوي (في ذلك الحين، كانت كل الكتب ممنوعة باستثناء كتب (ماو) وأنصاره وبعض الأعمال العلمية بوجه خاص). وضعنا قائمة طويلة بأسماء الكتب الممنوعة: الروايات الصينية الكلاسيكية، من الممالك العسكرية الثلاث إلى حلم داخل كشك أحمر، مروراً بـ: لوجان يانج، هذا الكتاب الذي يعتبر كتاباً ايروتيكياً. هنالك أيضاً أشعار سلالات تونج، وسونج ومانج أو ما تسمى أحياناً بـ(كين) اللوحات التقليدية لـزودا ولشي تاو وتونج كيشينج... استدعينا الإنجيل وأحاديث الشيوخ الخمسة وهو كتاب إدعائي ممنوع منذ قرون، يكشف فيه خمسة أنبياء كبار من سلالة (هان) وهم على قمة جبل مقدس ما سيحدث خلال الألفـن سنة اللاحقتين.

بعد منتصف الليل، غالبا ما كنا نطفئ مصباح الكيروسين ليتمدد كل منا في سريره داخل منزلنا المبني على الأوتاد، لندخن في الظلام، فيما تطشطش عناوين الكتب من أفواهنا. في أسماء العوالم المجهولة هذه، كان هنالك شيء من السحر ومن المتعة في رنين الكلمات وتتابع الحروف. كانت تتمتع بشيء من خصائص البخور التبتي الذي يكفي أن ننطق اسمه (زونج اكسيونج) حتى نشم الرائحة العذبة والفاخرة ونرى الأعواد العطرية تشرع في الرشح لتتغطى بقطرات حقيقية من العرق، تبدو، تحت أنوار المصابيح، مثل قطرات من الذهب السائل.

– هل سبق لك أن سمعت من يتحدث عن الأدب الغربي؟

هكذا سألني (لو) ذات مساء.

– ليس كثيراً. أنت تعرف أن والديّ لم يكونا يهتمان إلا بعملهما. خارج مهنة الطب لم يكونا يعرفان شيئاً.

– كذلك والديّ. لكن كان لدى عمتي بضعة كتب غربية بالية، ترجمت قبل الثورة الثقافية. أتذكر أنها كانت قد قرأت علي بضع قطع من كتاب يسمى (دون كيشوت)، حكاية فارس عجوز يثير الضحك.

– والآن أين هذه الكتب؟

– تحولت إلى دخان. صادرها الحرس الأحمر وقام بإحراقها على مرأى من الناس، أسفل عمارتها تماماً.

دخنا لبضع دقائق في الظلام، صامتين وحزينين. حكاية الأدب هذه أثبطت عزيمتي وقادتها إلى الموت: لم نكن محظوظين، ففي الوقت الذي أصبحنا فيه نقرأ بسهولة لم يعد هناك ما نقرأه. ففي كل المكتبات، لم تكن دائرة (الأدب الغربي) تحتوي إلا على الأعمال الكاملة للزعيم الشيوعي الألباني (أونفير هوكسها) والتي كانت تتراءى على أغلفتها صورة لرجل

عجوز بشعر رمادي مسرح جيداً، وملوي نحو الأمام، تحت حواجبه المبرومة كانت هنالك عين يسرى بنية ويمنى أكثر صغراً من اليسرى وأقل بنية ومزودة بقزحية بلون وردي شاحب.

- لماذا تحدثني عن هذا؟

سألت لو.

- كنت أقول لنفسي أن حقيبة (بينوكلار) الجلدية من الممكن أن تكون ممتلئة بمؤلفات من الأدب الغربي.

- معك حق، ربما، فوالده كاتب وأمه شاعرة. من المفترض أن لديه الكثير منها، كما هو الحال في بيتنا وبيتكم حيث يمتلئان بكتب طب غربية. لكن كيف بوسع حقيبة كتب أن تفلت من الحرس الأحمر؟

- يكفي أن يكون لديك من المكر ما يكفي لمواراتها في مكان ما.

- كانت مخاطرة هائلة من قبل آبائه أن يخلفوها لـ(لبينوكلار).

- مثلما حلم آباؤنا بأن نكون أطباء، لابد أن آباء (بينوكلار) أرادوا أن يكون ابنهم كاتباً. لهذا اعتقدوا أن عليه أن يكرس نفسه لدراسة هذه الكتب المخبأة.

مع مطلع الربيع تساقطت، وعلى مدار ساعتين، ندف سميكة مكّونة، على وجه السرعة، طبقة من الثلج بارتفاع عشرات السنتيمترات، كان ذلك في الصباح حيث منحنا مأمور القرية يوماً من الراحة. ذهبنا، (لو) وأنا، في الحال لرؤية (بينوكلار). كان قد وصلنا خبر تعرضه لمكروه: زجاجات نظارته كُسرت! بيد أنني لم أكف عن الاعتقاد بأنه سيستمر في القيام بما كان يقوم به من العمل. وذلك كي لا يفهم قصر النظر الخطير الذي يعاني منه من قبل الفلاحين كعجز بدني. كان لديه خوف دائم من أن يعاملوه ككسول لا سيما وأنهم من سيقرر ذات يوم ما إذا كان قد

(أُعيد تأهيله) جيداً. هم من يمتلكون نظرياً سلطة تحديد مستقبله. في هذه الظروف فإن أي قصور بدني أو انحراف سياسي من الممكن أن يكــون مصيرياً.

وبخلاف قريننا ما كان لفلاحي قريته أن يرتاحوا رغم هطول الثلوج، كان عليهم أن ينقلوا على ظهورهم الضرائب الســنوية المقــررة علــى القرية – وهي عبارة عن حمولات ثقيلة من الأرز – إلى مخزن الإقلــيم الذي يقع على بعد عشرين كيلو متراً من جبلنا، على ضفة نهر ينبع من التبت. كان مأمور القرية قد قسم الوزن الكلي لهــذه الضــرائب علــى عددهم بحيث يكون نصيب كل منهم حوالي ستين كيلو.

عند وصولنا كان (بينوكلار) قد ملأ سلته الكبيرة بنصيبه مــن الأرز وراح يهيئ نفسه للمغادرة. حين وقعت عيوننا عليه التقطنا حفنات مــن الثلج، كورناها بين أيدينا ورميناه بها لكنه أدار رأسه في كل الاتجاهات دون أن تتسنى له رؤيتنا. في غياب النظارة بــدت عينــاه الجاحظتــان شبيهتين بعيني كلب بكيني، مضطرب ومشدوه. كانت هيئتــه شــاردة، ومفزوعة حتى قبل أن يضع الحمولة على ظهره.

– أنت أبله – قال له (لو) – دون نظارات لن تستطيع القيام بخطــوة واحدة على الطريق.

– كتبت إلى أمي. ستبعث لي بواحدة في أقرب وقت ممكن، لكن إلى أن يحين موعد وصولها ليس بوسعي أن أبقى مكتوف اليدين. أنا هنا من أجل العمل، على الأقل من وجهة نظر المأمور.

كان يتحدث بسرعة كما لو أنه لا يريد إضاعة وقته معنا.

– انتظر – قال له (لو) – لدي فكرة: نحن سنأخذ حمولتك إلى مخزن المركز، وعند العودة ستعيرنا بعض الكتب التي تخبئهــا فــي حقيبتــك.

خدمة مقابل خدمة، أليس كذلك؟

- اذهب إلى الجحيم. أنا لا أعرف عما تتحدث، ليس لدي كتب مخبأة.

قال (بينوكلار) بخبث. وفي فورة غضبه حمل سلته الثقيلة وغادر.

- كتاب واحد فقط - صرخ (لو) باتجاهه - اتفقنا!

دون أن يرد بكلمة، سار (بينوكلار) على الطريق كان التحدي الذي ألقاه على عاتقه يفوق حدود قدراته البدنية. كان تصرفه هذا بمثابة نوع من المازوخية التي انخرط فيها سريعاً: كان الثلج يشكل طبقة سميكة على الأرض. في بعض المواضع كانت قدماه تغوصان إلى الكاحلين، وكان الطريق أكثر إنزلاقاً من المعتاد حتى أنه كان مضطراً قبل القيام بأي خطوة، أن يطيل التحديق أمامه على نحو يتجاوز الحد. بالرغم من ذلك، لم يكن قادراً على تمييز الأحجار الناتئة التي يتوجب عليه أن يضع أقدامه عليها. راح يتقدم بلا تبصر، متمايلاً مثل شخص ثمل. وفي موضع ينحدر عنده الطريق، راح يفتش بإحدى قدميه، متلمساً نقطة ارتكاز، لكن لم يكن بوسع ساقه الأخرى أن تسند وحدها ثقل حمولته التي كان متوارياً تحتها مما جعله يسقط على ركبتيه في الثلج. حاول أن يحافظ على توازنه في هذا الوضع دون أن يأرجح الحمولة، دافعاً في نفس الوقت الثلج بإحدى ساقيه وبقوة قبضته فاتحاً الطريق متراً بعد آخر منتهياً إلى النهوض. كنا نراقبه من بعيد، وهو يسير على نحو متعرج ليسقط مجدداً بعد بضعة دقائق. هذه المرة اصطدمت حمولته أثناء سقوطه بصخرة، ارتدت عنها لتسقط من ثم، على الأرض.

اقتربنا منه. انحنينا نساعده في التقاط الأرز المتناثر. لم يتفوه أحد بكلمة. لم أتجرأ على إدارة نظراتي ناحيته. كان جالساً على الأرض.

خلع حذائه الممتلئ بالثلج، أفرغه، ثم حاول تدفئة قدميه المخدرتين، بتدليكهما بين يديه.

لم يكف عن هز رأسه، كما لو كان ثقيلاً أكثر من المعتاد.

- أيؤلمك رأسك؟ سألته.

- لا. أُحس بصرير خفيف في الأذن.

وحين فرغنا من إعادة الأرز إلى السلة، كانت أكمام معطفي ممتلئة ببلورات ثلجية صلبة خشنة.

- هل نغادر؟ سألت (لو).

- نعم، ساعدني في حمل السلة. أشعر بالبرد، قليل من الثقل على ظهري سيدفئني.

تناوبنا، (لو) وأنا، على حمل ستين كيلو من الأرز إلى مخزن الإقليم، كدنا نموت من التعب. عند عودتنا أعطانا (بينوكلار) كتاباً صغيراً ومتهالكاً. كان أحد مؤلفات (بلزاك).

«Ba – er – za – ke» هكذا كان اسم (بلزاك) مكتوباً بالصينية بحيث يشكل كلمة مكونة من أربعة مقاطع صوتية. يالسحر الترجمة! فما أن يُنطق حتى يتلاشى في الحال، ثقل المقطعين الأولين والرنين الحربي والهجومي المستوحيين من سعير هذا الاسم. هذه الأربعة مقاطع، الرشيقة جداً، والتي يتألف كل منها من عدد قليل من الحروف، تتضام مع بعضها لتكّون جمالاً غير مألوف، تفوح منه نكهة أجنبية سحرية وسخية مثل رائحة زكية وآخاذة لكحول محفوظ منذ قرون داخل قبو (بعد بضع سنوات علمت أن المترجم كاتب كبير، مُنعت مؤلفاته الخاصة من النشر لمبررات سياسية، فأمضى حياته في ترجمة روايات لمؤلفين فرنسيين).

هل تردد (بينوكلار) كثيراً قبل أن يختار هذا الكتاب ليعيرنا إياه؟ هل كانت المصادفة المحضة هي التي ساقت يده؟ أم أنه قد تناوله بكل بساطة لأنه، في حقيبته الممتلئة بالكنوز النفيسة، كان هو الكتاب الأكثر صغراً وفي الحالة الأكثر سوءاً؟ هل الخساسة هي التي وجهت اختياره الذي ظل مبرره غامضاً بالنسبة لنا، والذي إن لم يكن قد قلب حياتنا برمتها، فعلى الأقل تلك التي تزامنت مع إعادة تأهيلنا، في جبل فينيق السماء.

كان عنوان هذا الكتاب الصغير (أورسول ميرويت)، وقد انكب (لو) عليه في نفس الليلة التي سلمه (بينوكلار) لنا وانتهى من قراءته عند الفجر. عندئذ أطفأ المصباح وأيقظني ليناولني إياه. وهكذا بقيت في السرير حتى حلول الليل، دون أن آكل ودون أن أعمل أي شيء آخر، سوى البقاء غارقاً داخل القصة الفرنسية المكرسة للحب والأعاجيب.

تخيلوا شاباً بِكراً، في التاسعة عشرة من العمر أي لا يزال ناعساً

على أذيال المراهقة ولم يعرف أبداً سوى الثرثـرة واللغـط الثـوريين والمجانين حول الوطنية، والشيوعية والإيديولوجيا والعمل الدعائي. بغتة ومثل دخيل يحدثني هذا الكتاب الصغير عن يقظة الرغبة والانـدفاعات والغرائز والحب وعن كل هذه الأشياء التي ظل العـالم، بالنسـبة لـي، ساكتاً عنها حتى ذلك الوقت.

رغم جهلي الكلي بهذا البلد المسمى فرنسا (كنت قد سـمعت لبضـع مرات اسم نابليون من فم أبي وهذا كل شيء) فإن حياة (أورسول)، بدت تتمتع بنفس القدر من الواقعية التي لحياة جيراني. دون شك، كان للعملية الدنيئة المتمثلة في التركة والنقود التي كانت تتساقط على رأس هذه الفتاة الشابة دورها في ترسيخ هذا الشعور وفي مضاعفة سلطة الكلمات. فمـا أن ولى النهار حتى أحسست – فيما أنا في منزلي – وكأنني في منزلها، في نومور بالقرب من الموقد الذي يتصاعد منه الدخان. برفقة الـدكاترة والقسيسين... حتى أن وجهة النظر حول الجاذبية المغناطيسية المتبادلـة بين العشاق والمشي أثناء النوم بدت لي شيقة وقابلة للتصديق.

لم أبارح سريري إلا بعد الانتهاء من قراءة الصفحة الأخيرة. لم يكن (لو) قد عاد بعد. كنت قد خمنت أنه ذهب منذ الصباح قاصداً الخياطـة الصغيرة لكي يحكي لها قصة (بلزاك) الرائعة هذه. وقفت لفتـرة علـى عتبة المنزل، أقضم قطعة من خبز الذرة في يدي، وأحدق بالطيف الداكن للجبل في الجهة المقابلة. كانت المسافة كبيرة بحيث لم أستطع أن أميـز الأنوار في قرية الخياطة الصغيرة. رحت أتخيل الطريقة التي سـيحكي (لو) القصة فانتابني فجأة شعور بالغيرة، مرير ومتـأجج، لـم أعـرف مصدره.

كان الجو بارداً إلى درجة أنني كنت أرتعد داخل معطفي القصير من

جلد الخرفان. كان سكان القرية يأكلون وينـــامون أو يقومـــون بأنشـــطة سرية في الظلام. أما هنا فيخيم الصمت وما من شيء يطال الآذان. في العادة كنت أستغل هذا الهدوء المخيم على الجبل لأقوم ببعض التمـــارين على الكمنجة، أما الآن، فقد كان الأمر مثبطاً للهمة. استدرت متجهاً إلى الحجرة، حاولت أن أعزف، فصدر عن الكمنجة صوت حاد، كريه، كنـــا لو أن شخصاً ما قد أخل بالسلم الموسيقي. فجأة أدركت ما أريد القيام به. قررت أن أنسخ كلمة، كلمة المقاطع المفضلة من (أورسول ميرويـــت)، كانت المرة الأولى في حياتي التي تتملكني فيها الرغبة في إعادة نســـخ كتاب. فتشت عن الورق في كل مكان من الغرفة. بيد أنني لم أتمكن من العثور إلا على بعض أوراق من تلك التي نستخدمها فـــي الكتابـــة إلـــى آبائنا.

حينئذ، اخترت أن أنسخ القطعة رأساً على جلد الخراف الذي صـــنع منه معطفي، والذي كان القرويون قد قدموه لي عنـــد وصـــولي. مـــن الخارج كان المعطف عبارة عن خليط عشوائي مـــن شـــعر الخرفـــان، المتفاوت الطول. لكنه من الداخل كان جلداً عارياً.

كان عليّ أن أفكر طويلاً قبل أن يقع اختياري على نصوص بعينهـــا وذلك لأن المعطف كان تالفاً من الداخل ومتهتكاً في عدة مواضـــع ممـــا جعل من المساحة الصالحة للكتابة محدودة. وقع اختياري على الفصـــل الذي تسافر فيه (أورسول) في نومها. قمـــت بنســـخه. أردت أن أكـــون مثلها: أن أستطيع، وأنا نائم على سريري، أن أرى ما كانت أمي تعملـــه في شقتنا على بعد خمسمائة كيلو متر، حاضراً أثناء وجبة العشاء التـــي تتناولها مع والدي، مراقباً هيأتهما، ألوان أطباقهما، تفاصـــيل وجباتهمـــا ومستنشقاً رائحتها، مصغياً للنقاشات التي تدور بينهمـــا... بـــل لفعلـــتُ

أفضل من ذلك – مثل أورسول – لرأيتُ، وأنا أحلم، أمكنة، لم أضع أقدامي فيها من قبل أبداً.

الكتابة بقلم جاف على جلد خروف جبلي عجوز لم تكن بالأمر الهين: كان لون الجلد كامداً، خشناً ولنسخ المزيد من القطعة المتاحة عليه، كان عليّ أن أتبنى كتابة متناهية في الصغر وهو ما يستدعي تركيز يفوق الحد. لذا ما أن انتهيت من لخبطة سطح الجلد كله بما فيه الأكمام، بالقطعة حتى كانت أصابعي تؤلمني بشدة كما لو أنها انكسرت، عندها خلدت إلى النوم. ولم أستيقظ إلا على خطوات (لو). رأيته من خلال الغشاوة يدخل الحجرة. كان مصباح الكيروسين لا يزال مشتعلاً مما جعلني أعتقد أنني لم أنم وقتاً طويلاً بيد أنها كانت الثالثة صباحاً.

– نائم.

– ليس تماماً.

– انهض، سأريك شيء ما.

سكب بعض الزيت في خزان المصباح، وحالما أصبحت الذبالة في أوج توهجها، حمل المصباح بيده اليسرى ودنا من سريري. جلس على حافته. العيون متقدة والشعر مرسل في كافة الاتجاهات. من جيب معطفه، أخرج قطعة مربعة من قماش أبيض، مثني بعناية.

-- أرى أن الخياطة الصغيرة أهدتك منديلاً.

لم يجب. لكن حينما فرد القماش، استطعت تمييز جانب من قميص ممزق، يخص دون شك، الخياطة الصغيرة. مثبتة عليه، بغرزات يد، مزقة، فيها أوراق أشجار يابسة لها الشكل اللطيف لأجنحة الفراشات، تتراوح درجاتها اللونية ما بين البرتقالي المائل إلى البني والمختلط بصفرة الذهب الخالص. بيد أنها كانت جميعها، ملطخة ببقع داكنة من الدم.

- إنها أوراق الجنكو - أخبرني (لو)، بصوت مضطرب - وهي شجرة ضخمة ورائعة تنمو في عمق وادي، لا يرتاده أحد، في شرق قرية الخياطة الصغيرة. مارسنا الحب واقفين ومستندين إلى جذع الشجرة. كانت عذراء، فسال دمها على الأرض، على الأوراق.

بقيت أخرساً للحظة. وما أن تسنى لي إعادة ترتيب صورة الشجرة في رأسي، مهابة جذعها، ورحابة أغصانها والمنثور من أوراقها حتى سألته:

- وقوفاً؟

- نعم مثل الأحصنة، لهذا السبب ربما أطلقت بعدها، ضحكة قوية جداً وموحشة، تردد صداها على امتداد الوادي جعلت العصافير تطير من الذعر.

❁ ❁ ❁

ما أن فتحنا عيوننا حتى كانت (أورسول ميرويت) قد أعيدت في الموعد المحدد - إلى مالكها، (بينوكلار) بلا نظارات. كان قد داعبنا وهمٌ أنه سيعيرنا الكتب الأخرى المخبأة في حقيبته السرية، لقاء الأعمال الشاقة وغير المحتملة جسدياً التي قمنا بها من أجله. ولكنه عدل عن ذلك. غالباً ما كنا نذهب إليه، حاملين له بعض الطعام، نتحبب له، نعزف له بعض المقطوعات على الكمنجة... غير أن وصول النظارات الجديدة التي بعثت بها أمه، حرره من نصف العمى ودل على نهاية أوهامنا.

كم كان أسفنا كبيراً لأننا أعدنا الكتاب إليه. (ربما كان حرياً بنا الاحتفاظ به، إن قراءته صفحة، صفحة إلى الخياطة الصغيرة، كفيل بأن يجعلها أكثر رقة وتهذيباً، إنني متأكد من ذلك). هكذا كان (لو) يردد.

أعتقد أن قراءة الاقتباس المدون على جلد سترتي هي التي أوحت له بهذه الفكرة. ذات يوم، وكان يوم راحة، اقترض (لو)، الذي طالما تبادلت معه ملابسي، معطفي الجلدي كي يذهب لملاقاة الخياطة الصغيرة في المكان الذي اعتادا اللقاء فيه، عند شجرة الجنكو، في وادي الحب. (ما أن انتهيتُ من قراءة القطعة لها، كلمة، كلمة حتى أخَذَتْ معطفك وأعادت قراءتها كاملة بمفردها وبصمت لم نسمع معه سوى الأوراق تهسهس فوقنا وضجيج سيل بعيد. كان الجو مشرقاً والسماء زرقاء، زرقة سماء الفردوس. عند الانتهاء من مطالعتها، أبقت الفم مفتوحاً وساكناً فيما يديها تتشبث بمعطفك كما يفعل هؤلاء المؤمنون حين يحملون شيئاً مقدساً بين راحات أيديهم. (هكذا حكى لي (لو) مستأنفاً) ساحر حقيقي، هذا العجوز (بلزاك). لقد وضع يداً لا مرئية على رأس هذه الفتاة، جعلها تتبدل كلية وتستغرق في شرود حالم استمر عدة لحظاتٍ قبل أن تعود إلى وعيها وتتأكد من أنها لا تزال واقفة على الأرض. بعدها ارتدت معطفك الذي بدا، رغم رثاثته، ملائماً عليها. قالت لي إن اقتران كلمات (بلزاك) على جلدها يمنحها السعادة والذكاء...

افتتاننا برد فعل الخياطة الصغيرة، ضاعف من أسفنا لإعادتنا الكتاب. كان علينا أن ننتظر مطلع الصيف الذي حمل معه فرصة جديدة.

كان يوم أحد. كان (بينوكلار) قد أوقد ناراً أمام منزله واضعاً قدراً كبيراً على الأحجار، وملأه بالماء. حين وصولنا، (لو) وأنا، أثار هذا التدبير دهشتنا. في البدء قابلنا (بينوكلار) بالصمت. كان واضحاً عليه الإرهاق والحزن. عندما بدأ الماء بالغليان، انتزع معطفه وألقاه فيه وقد بدت عليه مشاعر النفور. بمعونة عصا طويلة حصره في قاع القدر. مغلفاً ببخار كثيف، راح يحرك بلا توقف المعطف البائس في الماء الذي

تصاعدت من سطحه حباحب داكنة وفتات تبغ ورائحة نتنة.

– لكي تقتل القمل؟ سألته.

– نعم، لقد التصق بي الكثير منها، عندما كنت في المنحدر الصخري المسمى منحدر الألف متر.

لم يكن اسم هذا المنحدر غريباً علينا، بيد أننا لم نكن قد وضعنا أقدامنا عليه من قبل. كان بعيداً عن قريتنا وعلى مسافة نصف نهار سيراً على الأقدام على الأقل.

– ماذا كنت تعمل هناك؟

لم يجب. اكتفى فقط بأن انتزع بحركات طقوسية قميصه ثم الكنزة والبنطال وأخيراً جواربه وغطس كل ذلك في المياه الفائرة. كان جسده الهزيل، بعظامه الناتئة، مغطى ببثور حمراء كبيرة فيما كانت بشرته المخمشة مدماة من جراء الحزوز التي أحدثتها أظافره.

– كانت سمينة لدرجة البشاعة قملات هذا المنحدر القذر. لقد نجحت في فقس بيوضها في أعطاف ملابسي.

قال (بينوكلار) ذلك ودلف إلى المنزل ليبحث عن سرواله ثم عاد. قبل أن يغطسه في القدر، أراه لنا: لطفك يا رب! في طياته، كانت هناك سبحات وسبحات من بيوض داكنة، لماعة مثل لآلئ ضئيلة جداً. يكفي أن تلقي نظرة عليها حتى يقشعر بدنك من أخمص القدمين إلى الرأس.

جلسنا، (لو) وأنا، جنباً إلى جنب، إلى جوار القدر. قمنا بإضافة قطع من الخشب لتأجيج النار، فيما أمسك (بينوكلار) عصاه الخشبية الطويلة وراح يحرك بواسطتها ملابسه في الماء الفائر. شيئاً فشيئاً أفشى لنا بسر ذهابه إلى منحدر الألف متر.

قبل أسبوعين، تلقى (بينوكلار) رسالة من والدته، الشاعرة التي كانت

فيما مضى، قد حققت شهرة واسعة في مقاطعتنا بفضل أغنياتها التي تدور حول الضباب، المطر، والذكرى الخجولة للحب الأول. أعلمته في رسالتها أن واحداً من أصدقائها القدامى عُين رئيساً لتحرير مجلة أدبية ثورية وأنه رغم عدم ثبات وضعه وعدها بمحاولة أن يجد لـ(بينوكلار)، مكاناً في مجلته. وكيلا يبدو الأمر وكأنه (توسط) له فقد ارتأى أن ينشر أولاً أغاني شعبية – يقوم بينوكلار نفسه بجمعها من بيئتها الخاصة مباشرة – أي من ذلك النوع من الأغنيات الجبلية الذي يتسم بالأصالة والصدق وبمسحة رومانسية واقعية.

منذ أن استلم (بينوكلار) هذه الرسالة تغير كل شيء فيه وأخذ يعيش في حلم يقظة سابحاً في السعادة للمرة الأولى في حياته. لقد رفض الذهاب إلى الحقول، مرتمياً، بحماس هائج، في مطاردة متوحدة للأغاني الجبلية. كان واثقاً أن بمقدوره أن يحصل على مجموعة كبيرة، بفضلها سيرى الوعد – الذي قطعه على نفسه المعجب القديم بأمه – يتحقق. غير أن أسبوع مضى دون أن يتمكن من تدوين أدنى بيت شعري يستحق النشر في مجلة رسمية.

عندئذ، كتب إلى أمه رسالة يشرح فيها فشله ساكباً دموع الإحباط. غير أنه في لحظة تسليم الرسالة إلى ساعي البريد، أخبره هذا الأخير أن عجوزاً جبلياً يقطن على منحدر الألف متر: طحان يعرف كل الأغاني الشعبية للإقليم، مغنٍ أُمي عجوز، بطل حقيقي في هذا الميدان، مما جعل (بينوكلار) يمزق الرسالة ويغادر تواً، في مطاردة جديدة.

– إنه سكير بائس – قال لنا – أتدرون مع ماذا يتناول مشروبه الكحولي؟ مع الحصى! أُقسم لكم برأس أمي! يبللها بماء متسخ ويضعها في فمه. يديرها بين أسنانه ثم يبصقها على الأرض. إنه يسميها (كرات

حجر اليشم بمرق الطحانه). اقترح عليَّ أن أتذوقها. غير مكترثٍ بمشاعره، رفضت، فأصبح مستثاراً إلى درجة، مهما عملت أو مهما كان مقدار المبلغ الذي أقترحه عليه فإنه يرفض أن يغني أي شيء. أمضيت يومين في طاحونته العتيقة، على أمل أن أنتزع منه بضع أغانٍ. نمت ليلة في سريره على ملاية يبدو أنها لم تغسل منذ عقود.

لم يكن من السهل علينا تخيل المشهد: على سرير تتزاحم عليه آلاف الحشرات ظل (بينوكلار) مستيقظاً خشية أن يشرع الطحان العجوز – في حلمه – وبالمصادفة في ترديد أغانٍ تتسم بالأصالة والتلقائية. في هذه الأثناء يخرج القمل من جحوره لكي يهاجمه في الظلمة، طوراً يمتص دمه وطوراً آخر يتزلج على زجاج نظارته التي لم يكن قد خلعها طوال الليل. وكلما ندت عن العجوز حركه، كأن يغير وضع رقدته أو يشهق أو يسعل كلما حبس (بينوكلار) أنفاسه وهو على أتم الاستعداد لإضاءة مصباح جيبه الصغير ليتسنى له تدوين بعض الأبيات، مثل جاسوس. ليعود كل شيء، بعد ذلك، إلى طبيعته. فيشرع العجوز في الشخير على إيقاع دواليب طاحونته التي لا تتوقف أبداً عن الدوران.

– عندي فكرة، إذا نجحنا في انتزاع أغانٍ شعبية من طحانك هذا فهل ستعيرنا كتباً أخرى لـ(بلزاك)؟

سأله (لو) بلهجة متملقة.

لم يجب (بينوكلار) على الفور، بل حدق بثبات عبر نظارته المغطاة زجاجاتها بالأبخرة المتكثفة التي تتصاعد من المياه التي تغلي داخل القدر، كما لو كان واقعاً تحت تأثير تنويم مغناطيسي مارسته عليه جثث القمل التي كانت تتشقلب بين الفقاعات وكرات التبغ. رفع عينيه أخيراً وسأل (لو):

– ما هي الطريقة التي تفكر بإتباعها؟

لو أنكم رأيتموني في ذلك النهار من صيف (١٩٧٣) وأنا في الطريق إلى منحدر الألف متر لكنتم اعتقدتم مباشرة أنني كنت خارجاً من صورة رسمية لأحد مؤتمرات الحزب الشيوعي أو من صورة حفل زفاف أحد (الكوادر الثورية). كنت أرتدي سترة، لها زرقة زي البحارة، بعنق رمادي فاتح، قامت خياطتنا الصغيرة بتفصيلها. كانت، في أدق تفاصيلها نسخة مطابقة لسترات الرئيس (ماو)، من العنق إلى شكل الجيوب مروراً بالأكمام المزين كل منها بثلاثة أزرار صغيرة ولطيفة بصفرة الذهب تتوامض بانعكاسات النور مع كل حركة للذراع. لموارة شباب شعري المرسل على نحو فوضوي قامت بائعة الأزياء بوضع طاقية أبيها الخضراء على رأسي بنفس القدر من الانحراف الذي لطاقيات ضباط الجيش. ما كان يعيبها، فقط، إنها كانت ضيقة على رأسي، كان يتوجب أن تكون بمقاس أكبر قليلاً ربما.

بالنسبة لـ(لو)، فإن دوره كسكرتير ألزمه بارتداء الزي الشاحب لرجال الجيش الذي اقترضه عشية ذهابنا، من فلاح شاب كان قد أنهى خدمته العسكرية. على صدره تتلألأ ميدالية بحمرة اللهب، مطبوع عليها بشكل بارز رأس (ماو) المذهب بشعراته المسرحة بعناية فائقة إلى الخلف.

بما أننا لم نكن قد وضعنا أقدامنا في هذا الركن المجهول والموحش فإننا أوشكنا على الضياع داخل حشد كثيف من أشجار الغاب الهندي، التي أحدقت بنا من كل ناحية لتشكل غابة معتمة ورطبة ومفعمة بالرائحة النهمة لحيوانات ليست في متناول العين. رحنا نتوغل فيها، ناظرين إلى قممها المتلألئة بقطرات المطر، مصغين بين حين وآخر إلى

الطقطقات الناعمة والموحية لنمو البراعم الجديدة. إذ كان بوسع بعض أشجار الغاب، الشابة والأكثر قوة أن تُطلع براعم بطول ثلاثين سنتمتراً خلال نهار واحد.

كانت طاحونة المغني العجوز، بدواليبها الواسعة، المنحوتة من الحجر الأبيض الموشى بالعروق الداكنة والتي تدور في الماء ببطء فلاحي خالص، تشبه تحفة أثرية لها ضجيج الشلالات الساقطة من علو.

كانت أرضية الدور الأول تهتز. كان بوسْعِنَا أن نرى، خلال الألواح القديمة، المتشققة، انسياب المياه، تحتنا بين الأحجار الضخمة. كان صرير الدواليب مع الصدى يرن في آذاننا. أثناء دخولنا وقعت أنظارنا على عجوز، عاري الجذع، يقف في وسط الحجرة، مفرغاً في فوهة الطاحونة ذات المحيط الدائري بعض الحبوب. حين رآنا توقف، وراح يحدق فينا بصمت وارتياب، لم أحيه باللهجة السيشوانية، وهي لهجة مقاطعتنا، وإنما باللهجة الرسمية، كما يتحدثون في الأفلام تماماً.

- بأي لغة تتكلم؟

سأل (لو) وقد علت ملامحه الحيرة.

- باللغة الرسمية، لغة أهل بكين، ألا تعرفها؟

- أين تقع بكين هذه.

أصابنا هذا السؤال بصدمة. وحين تبين لنا أنه لا يعرف بكين حقاً ضحكنا ملء أشداقنا. للحظة شعرت اتجاهه بالحسد لجهله الكلي بالعالم الخارجي.

- بيينج. هل يعني لك شيئاً هذا الاسم؟ سأله (لو).

- بيينج؟ بالتأكيد، إنها مدينة كبيرة في الشمال.

- منذ عشرين عاماً غيرت هذه المدينة اسمها، يا عزيزي -

أوضح (لو) – وهذا السيد الواقف إلى جواري يـتكلم باللغـة الرسـمية لبيينج، كما تسميها.

حينئذ، ألقى العجوز ناحيتي نظرة ملؤها الوقار. تأمل سترتي الماوية. ثـبت نظراته على أزرار الكم الثلاثة، ثم لمسها بأطراف أصابعه.

– بماذا تفيد، هذه الأشياء الصغيرة هنا؟

سألني.

ترجم (لو) السؤال لي. بلهجتي الرسمية الرديئة أجبته بأنني لا أعرف شيئاً عن ذلك. غير أن مترجمي أوضح للطحان العجوز أنني أقول أنهـا شعار الكوادر الثورية الحقيقية.

– هذا السيد البيينجي جاء إلى هنا لجمع الأغاني الشعبية ومن واجب كل مواطن يعرف بعض منها أن يزوده بها.

تابع (لو) ببرود لا مثيل له إلاَّ لدى نصاب كبير.

– أقوال الجبليين هذه؟ (سأله العجوز، ملقياً نظرة متشككة نـاحيتي) إنها ليست أغاني. بتعبير أدق مواويل، مواويل قديمة عفى عليها الزمن، تفهم ما أقصد؟

– وهذا ما يريده هذا السيد، بالضبط مواويل بكلمـات تتمتـع بقـوة فطرية وأصيلة.

ردد الطحان العجوز هذا الطلب المحدد ثـم ألقـى نـاحيتي نظـرة مصحوبة ببسمة ماكرة وغريبة.

– أتعني حقاً...؟

أجبته:

– نعم.

– أيريد حقاً هذا السيد أن أغني له هذه السخافات؟ لأن، أنتم تعلمون،

مواويلنا، إنه أمر معروف، إنها...

انقطعت عبارته مع وصول عدة فلاحين يحملون على ظهورهم دناناً كبيرة.

أحسست فعلاً بالخوف، مترجمي كذلك. همست في أذنه: (أتنفد بجلدنا؟) استدار العجوز نحونا وسأل (لو): (ماذا قال؟) أحسست بالدم يتدفق إلى وجهي ولكي أخفي حرجي هرولت باتجاه الفلاحين كما لو أنني أهم بمساعدتهم في إنزال الدنان عن ظهورهم.

كان عدد الواصلين الجدد ستة. لم يكن أي منهم قد جاء إلى قريتنا. ما أن تأكدت أنه لم يكن بوسعهم التعرف علينا حتى استرديت هدوئي. وضعوا على الأرض دنانهم الثقيلة الممتلئة بحبوب الذرة التي جاؤوا لطحنها.

- تعالوا أقدمكم لسيد شاب من بيينج أترون الأزرار الثلاثة على أكمامه؟

خاطبهم الناسك العجوز. أمسك بمعصمي وقد تهلل وجهه وشعشع. رفعه في الهواء وأدلاه أمام عيون الفلاحين ليثير إعجابهم بالأزرار المتهالكة الصفراء عن قرب.

- أتدرون ما يعني هذا؟ إنه رمز لكادر حزبي.

صرخ فانبجست من فمه جشأة برائحة الكحول.

لم أكن أعتقد أبداً أن عجوزاً هزيلاً جداً يتمتع بهذا القدر من القوة: يده المغطاة بالدمامل كانت توشك أن تحطم معصمي. إلى جانبنا، كان (لو) النصاب يترجم كلماته إلى لغة أهل بكين مضيفاً على نفسه الأهمية المفترضة لمترجم رسمي. وكما يفعل القادة الذين كنا نراهم على شاشة السينما، ألزمت نفسي بمصافحة كل الناس معبراً عن نفسي في لهجة بكينية يرثى لها، مصاحباً ذلك بهز الرأس.

في حياتي السابقة كلها، لم أقم بشيء مماثل أبداً. كنت أشعر بالندم لقيامي بهذه الزيارة المتنكرة والتي كانت عبارة عن تتمة للمهمة المستحيلة التي قام بها (بينوكلار)، المالك عديم الشفقة للحقيبة الجلدية.

فيما كنت أهز رأسي سقطت طاقيتي الخضراء على الأرض أو بالأحرى طاقية الخياط.

❁ ❁ ❁

أخيراً غادر الفلاحون، مخلفين جبلاً من حبوب الذرة للطحن.

كنت مهدوداً من التعب، فيما غدت طاقيتي حلقة حقيقية من الحديد، تضغط أكثر فأكثر على جمجمتي مسببة لي الصداع.

قادنا الطحان العجوز إلى الدور الأول عبر سلم خشبي صغير تنقصه درجتين أو ثلاث. هرول باتجاه زنبيل من الخيزران وأخرج منه قنينة من العرق وثلاثة كؤوس.

- هنا يوجد غبار أقل. سنشرب كأس.

قال لنا مبتسماً.

كانت الأرضية الخشبية لهذه الحجرة الواسعة والمعتمة مغطاة بالكامل تقريباً بحصى صغيرة أعادت إلى الذهن (كرات حجر اليشم) التي كان (بينوكلار) قد حدثنا عنها. كما أنها كانت كما هو الحال في الدور الأرضي خالية من أي كرسي أو مقعد أو أي قطعة من الأثاث التي من المعتاد أن يحتويها منزل مأهول. فقط سرير كبير أسفل جدار مكسو بفرو مجعد لنمر أرقط أو فهد أسود، معلقة عليه آلة موسيقية بثلاثة أوتار، عبارة عن نوع من الكمنجة مصنوع من خشب الغاب.

دعانا الطحان العجوز إلى الجلوس على السرير الذي خَلَّفَ ذكرى

مؤلمة وبعض البثور الكبيرة، الحمراء في سلفنا (بينوكلار).

ألقيت نظرة باتجاه مترجمي الذي كان الخوف من الانزلاق على الحصى بادياً عليه بحيث كان يتقدم باتجاه السرير وهو يوشك أن يتكوم على الأرض.

- ألا تفضلون أن نبقى في الخارج؟ الجو معتم هنا أكثر من اللازم.

تمتم (لو) وقد فقد هدوئه للمرة الأولى.

- لا تقلقا.

أشعل العجوز مصباح الكيروسين ووضعه في وسط السرير وبما أنه لم يعد فيه ما يكفي من الزيت فقد غادر لجلب بعض منه وعاد بقنينة ممتلئة، سكب نصفها في خزان المصباح وترك القنينة على السرير إلى جانب قنينة الكحول.

طوينا سيقاننا تحتنا وجلسنا ثلاثتنا على السرير، يتوسطنا مصباح الكيروسين. تناول كل منا كأساً من العرق. على بعد بضعة سنتمترات مني وفي ركن السرير كانت هناك بطانية ملفوفة في كتلة لا شكل لها وإلى جوارها ملابس متسخة. فيما كنت أشرب أحسست بحشرات صغيرة تزحف تحت بنطالي وعلى امتداد ساقي. في اللحظة التي أدخلت يدي بحذر، على الرغم من البروتوكول الذي يلزمني به وضعي الرسمي، أحسست بساقي الأخرى تتعرض لهجوم. على وجه السرعة تكّون لديَّ انطباع أن هؤلاء العزيزات الصغيرات اللاتي لا يحصى عددهن يتّجمعن على جسدي متلهفات لتغير الطبق، متلهفات لمأدبة جديدة مكونة من أوردتي. الصورة المختلسة للقدر الكبير مرقت أمام عينيَّ. قدر تصعد وتهبط فيه ملابس (بينوكلار) تدور في الماء المغلي، وسط حباحب داكنة تنتهي بأن تخلي المكان لسترتي الماوية الجديدة.

تركنا العجوز بمفردنا للحظة، يُغير علينا القمل، ثم عاد بطبق وسلطانية صغيرة، وثلاثة أزواج من العَصيّ. وضعها إلى جوار المصباح ثم صعد إلى السرير.

لم نكن نتصور، لا (لو) ولا أنا، لثانية واحدة أن العجوز سيتجرأ ويقترف في حقنا ما كان قد اقترفه في حق (بينوكلار). غير أن الوقت كان متأخراً. فالطبق كان في مواجهتنا، ممتلئ بحصوات صغيرة لا فائدة ترجى منها، ومشذبة وبدرجات لونية تتراوح بين الرمادي والأخضر. كان الطبق ممتلئاً بماء رائق، يزداد شفافية في نور مصباح الكيروسين. في قاع السلطانية كانت هنالك بضعة حبوب كبيرة بلورية خيل إلينا أنها صلصة الملح. كان القمل المهاجم مستمراً في توسيع مجال حركته. أفلح في النفاذ إلى تحت طاقيتي، إذ أحسست بشعراتي تنتصب بفعل الأكلان الغير متسامح لجلد الرأس.

- تفضلوا! إنها الوجبة التي أتناولها كل يوم: كرات حجر اليشم مع صلصة الملح.

قال لنا العجوز.

فيما هو يتحدث، تناول زوجاً من العصي. التقط إحدى الحصوات من الطبق، غمسها في الصلصة ببطء يكاد أن يكون طقوسياً، حملها إلى فمه وامتصها بشهية مفتوحة، محتفظاً بها لفترة طويلة في فمه. رأيته يديرها بين أسنانه المصفرة والداكنة. بدت كأنها اختفت في عمق حلقه، غير أنها عادت مجدداً إلى الظهور، قبل أن يلفظها العجوز من أحد زوايا فمه ويرسلها تتدحرج بعيداً عن السرير.

بعد لحظة من التردد تناول (لو) زوجاً من العصي وتذوق كرته الأولى من حجر اليشم، مبدياً دهشة مفعمة بالإعجاب المختلط بمشاعر

تبعث على الشفقة. السيد البيينجي الذي كنت أمثله شرع في تقليدهما. لم تكن الصلصة مالحة بدرجة كبيرة أما الحصاة فقد تركت في فمي مذاقاً عذباً، قليل المرارة.

لم يكف العجوز عن صب الكحول في كؤوسنا، طالباً منا أن ندلقها في جوفنا دفعة واحدة، كما يفعل هو فيما راحت الحصوات الملفوظة من أفواهنا الثلاثة تتساقط في مسارات منحنية، ضاربة أحياناً الحصى التي تفترش الأرضية، مصدرة ضجيجاً مسموعاً، جافاً ومرحاً.

كان مزاجه رائقاً ويتحلى بحس مهني عال، فقبل أن يشرع في الغناء، خرج لإيقاف الدواليب التي كانت تصدر صريراً عالياً، ثم أغلق النافذة لكي يحسن من مجال الاستماع، الجذع عارٍ دائماً. ضبط حزامه – وهو عبارة عن حبل من التبن المفتول – وأخيراً انتزع آلته ذات الأوتار الثلاثة من الجدار.

– تريدون الاستماع لمواويل قديمة؟ سألنا.

– نعم، لمجلة رسمية مهمة – اعترف (لو) – أنت وحدك من يستطيع أن ينجدنا. ما نريده هو هذه الأشياء الصادقة والأصيلة والتي تتحلى بنوع ما من الرومانسية الثورية.

– ما هي هذه الرومانسية؟

بعد تأمل، وضع (لو) يده على صدره مثل شاهد يؤدي قسماً أمام الرب:

– العاطفة والحب.

بصمت جابت الأصابع العظيمة للعجوز على أوتار الآلة التي كان يمسك بها مثل جيتار. ما أن أمسك بمطلع اللحن حتى ابتدأ بترديد أحد المواويل بصوت يسمع بالكاد.

ما لفت انتباهنا أولاً هو حركات بطنه التي ما لبثت أن استحوذت على كامل اهتمامنا بحيث لم نعد نلقي بالاً إلى صوته ولا إلى اللحن ولا إلى شيء آخر. يا لها من بطن مذهلة! في الحقيقة بطن هزيلة كهذه، لم تكن تمتلك شيئاً من خصائص البطن سوى جلدها المكرمش المكون مما لا يحصى من التغضنات الصغيرة. كان ما أن يغني حتى تستيقظ هذه الثنيات وتتحرك في تموجات صغيرة ترق وترق على بطنه العاري، المتورد، البرونزي. بينما يشرع حبل القش الذي يستخدمه كحزام في التأرجح بجنون. أحياناً، كانت تموجات الجلد المتغضن هذه تبتلعه بحيث يغيب عن النظر، غير أنه وفي اللحظة التي يعتقد المرء أنه قد ضاع في حركات المد والجزر يظهر من جديد على نحو لائق وخال من العيوب. لقد كان حبلاً سحرياً.

بعد قليل انطلق صوت الطحان العجوز مبحوحاً وعميقاً وعالياً داخل الحجرة. فيما يغني كانت عيناه تبحران جيئة وذهاباً بين وجهينا، مسفرة حركاتهما حيناً عن تواطؤ ودود وحيناً آخر تستقران لبرهة في وضع ينم عن الشرود.

هاهو الموال الذي غناه:

أخبرني،

مما تخاف قملة عجوز؟

تخاف من ماء يغلي،

من ماء يغلي.

والراهبة الشابة،

أخبرني،

مما هي خائفة؟

خائفة من راهب عجوز
لا شيء آخر تخافه
سوى راهب عجوز.

وخزتنا ضحكة مجنونة. في البدء (لو)، ثم أنا. حاولنا ما أمكننا كبحها لكنها صعدت وصعدت من أعماقنا وانتهت بالانفجار. بيد أن الطحان العجوز استمر في الغناء، غناءً مشفوعاً ببسمة فخورة بالأحرى وبتموجات جلد بطنه المتغضن. كان الضحك شديداً لدرجة التوَت معها جذوعنا معها وسقطنا على الأرض عاجزين عن إيقافه.

نهض (لو) عن الأرض وعيناه ممتلئتان بالدموع. تناول قنينة وملأ كؤوسنا. كان المغني العجوز يوشك على الانتهاء من مواله الأول الموسوم بالتلقائية والأصالة والأجواء الرومانسية للجبال.

- لنشرب أولاً نخب بطنك المقدس، اقترح (لو).

والكأس في يده، سمح لنا مغنينا وقد انتهى من الغناء، أن نضع أيدينا على بطنه، ساحباً نفساً طويلاً، فقط ليتيح لنا الاستمتاع بمشهد تموج بطنه الجميل. صفقنا الكؤوس ببعضها وتجرع كل منا كأسه دفعة واحدة. خلال الثواني الأولى لم يصدر عن أي منا رد فعل. لكن فجأة، صعد إلى حلقي شيء ما بلغ من الغرابة درجة أنستني دوري فسألت العجوز بلهجة سيشونية سليمة:

- ماذا كان كأس عرقك هذا؟

ما أن نطقت بهذه العبارة حتى بصقنا ثلاثتنا وفي نفس الوقت ما تبقى منه في أفواهنا: أخطأ (لو) القنينة فبدلاً من أن يقدم لنا العرق قدم لنا زيت الكيروسين.

منذ وصوله إلى جبل فينيق السماء، كانت هذه المرة الأولى التي تنعقد فيها شفتا (بينوكلار) ببسمة سعادة حقيقية. كان الجو حاراً. على أنفه الصغير، المغطى بقطرات صغيرة من العرق، أوشكت نظارته أن تنزلق وتتحطم على الأرض فيما كان منهمكاً في مطالعة الثماني عشرة أغنية التي دوناها من فم الطحان العجوز على ورق ملطخ بصلصة الملح والعرق وزيت المصباح. كنا ممددين على السرير لا نقوى على خلع ملابسنا وأحذيتنا. كنا قد سرنا طوال الليل، تقريباً خلال الجبال، مجتازين غابة أشجار الغاب الهندي، ترافقنا من بعيد وحتى بزوغ الفجر همهمة وحوش غير مرئية، ناهيك عن الإنهاك الذي بسببه كنا على مسافة بنانتين من الموت. فجأة توارت بسمة (بينوكلار) وأربد وجهه.

- ماخور! لم تدونوا سوى قذارات.

صرخ في وجهينا.

خيل إلينا أننا أمام آمر حقيقي، مجنون من الغضب. لم أتعرف مطلقاً على صوته. مع ذلك لزمت الصمت. الشيء الوحيد الذي كنا نتوقعه منه هو أن يعيرنا كتاباً أو اثنين كمكافأة على قيامنا بالمهمة.

- لقد طلبت منا أغاني جبلية أصيلة.

ذكره (لو) بصوت حاد.

- تباً! لقد حددت لكم مع ذلك أنني أريد كلمات مهذبة ذات صيغة رومانسية واقعية.

تحدث (بينوكلار) ممسكاً الأوراق بين أصبيعه وهزها فوق رؤوسنا، اختلطت في مسامعنا خشخشة الأوراق بصوته الذي كان يشبه في صرامته صوت مدرس في المرحلة الأساسية.

– لِمَ تنجذبان دائماً إلى هذه القاذورات الممنوعة، أنتما الاثنان...!؟

– لا تبالغ.

قال له (لو).

– أنا من يبالغ؟ هل تريد أن أعرض هذا على اللجنة المحلية؟ على الفور سيتهم طحانك العجوز بإشاعة أغانٍ جنسية وبذلك سيتعرض حتى للسجن، ولست أمزح.

فجأة أحسست بالمقت اتجاهه. لكن، لم تكن اللحظة المناسبة للانفجار قد حانت. كنت أفضل انتظار أن ينفذ وعده بإعطائنا بعض الكتب.

– هيا، ماذا تنتظر! أن تلعب دور الواشي؟ سأله (لو). بالنسبة لي فإنني أقدر هذا العجوز، أقدر أغانيه، صوته، حركات بطنه المقدسة وكل ما يقول. سأعود لأمنحه بعض النقود.

جلس (بينوكلار) على طرف السرير. رفع ساقيه على إحدى الطاولات وأعاد قراءة صفحة أو اثنتين.

– كيف تسنى لكما أن تضيعا وقتكما في تدوين هذه الموبقات! لا أتخيل ذلك! هل أنتما إلى هذا الحد من الحمق بحيث تصورتما أن مجلة رسمية ستنشرها، وهو ما سيفتح أمامي أبواب إعادة التأهيل...!؟

منذ أن استقبل رسالة والدته، طرأت على (بينوكلار) تغيرات غريبة. قبل بضعة أيام، لم تكن هذه الطريقة في التحدث إلينا لتخطر على بال. لم أكن أتصور أن أملاً ضئيلاً يتعلق بمستقبله بوسعه أن يغير بهذا القدر إنساناً، ويجعله تام الجنون، متعجرفاً ويطبع صوته بالكثير من الطمع والضغينة. لم تنم عنه أي إشارة إلى الكتب التي كان من المفترض أن يعيرنا إياها؟ نهض، مخلفاً الأوراق على السرير، لنسمع بعد ذلك، صوته آتياً من المطبخ ممتزجاً بضجيج تقطيع الخضروات تمهيداً لإعداد

الوجبة:

- أنصحكما بأن تأخذا أوراقكما وتلقياها في النار حالاً أو تحشراها في جيوبكما. لا أريد أن أرى هذا النوع من القاذورات في بيتي وعلى سريري...!

- أعطنا كتاباً أو اثنين وسنغادر.

- أي كتب؟

سمعته يسأل (لو) وهو مستمر في تقطيع كرنب أو لفت.

- هذه التي وعدتنا بها.

- تسخر مني أو ماذا؟ لقد جلبتما إليَّ أشياء يرثى لها لا يمكنها إلا أن تصيبني بالمتاعب! ولديكما الوقاحة لأن تأتياني بها على أنها...

وصمت فجأة. هرول إلى الغرفة والسكين في يده. جمع الأوراق المبعثرة على السرير. دنا من النافذة ليتسنى له إعادة قراءتها في النور.

- يا إلهي! وجدتها - صرخ - يكفي أن أعدل في الكلمات قليلاً وأن أضيف بعضها وأحذف بعضها الآخر... عقلي يعمل أحسن من عقولكم، لا يد لي في ذلك!. إنني من دون شك، أكثر ذكاءً!

دون مزيد من التمعن، قرأ علينا المقطع الأول من الأغنية بعد أن قام بتحويره وتزييفه:

أخبروني،

القملات البرجوازية الصغيرة.

خائفة من ماذا؟

من الموجة الصاعدة للبروليتاريا.

بانتفاضة خاطفة نهضت من مكاني وارتميت عليه. في فورة غضب أردت أن أنتزع الأوراق من يديه فقط. بيد أن حركتي تحولت إلى لكمة

قوية أصابته في الوجه مما جعله يتــرنح. اصــطدمت مــؤخرة رأســه بالجدار. في ارتداده سقط السكين من يده وشرع أنفه في النزيف. أردت استرجاع الأوراق وتمزيقها ومن ثم حشرها في فمه غير أنه لــم يتخــلَ عنها.

وبما أنني لم أتعارك منذ وقت طويل فقد انتابني للحظة ارتباك ولــم أدر ما الذي حدث. رأيت فمه ينفتح واسعاً، غير أنني لم أسمع عواءه.

خرجت من المنزل لأسترد أنفاسي وبينما كنا، (لو) وأنا، جالسين إلى جانب الطريق،تحت نتوء صخري، أشار (لــو) إلــى ســترتي الماويــة الملطخة بدم (بينوكلار).

– إنك تشبه بطلاً في فيلم حول الحرب، – قال لــي – فــي الوقــت الحالي أصبح الحصول على (بلزاك) أمراً ميؤوساً منه بالنسبة لنا.

في كل مرة أسأل فيها كيف هي مدينة (يونج جينج) أجيب بلا استثناء مستعيراً (عبارة صديقي لو): إنها تبلغ من الصغر حداً أنه إذا ما طهي في مطعم دار الحكومة طبق من اللحم بالبصل فإن كل المدينة تشم الرائحة، في الواقع لم تكن تتكون إلا من شارع وحيد بطول مئتي متر تقريباً. يوجد في الشارع دار الحكومة، مكتب البريد، بقالية، مكتبة، مدرسة ثانوية ومطعم يتواجد وراءه فندق مكون من اثنتي عشرة غرفة. عند مخرج المدينة وعلى رابية ينتصب مستشفى الإقليم.

في ذلك الصيف أرسلنا مأمور القرية لمرات عديدة إلى المدينة لحضور العروض السينمائية في راي فان الدافع المضمر لمنحنا هذه الحريات يعود إلى السحر الذي لا يقاوم الذي كان يمارسه علينا منبهنا الصغير بديكه المتعجرف ذي ريش الطاووس الذي يلتقط في كل ثانية حبة أرز، كان هذا المزارع السابق للأفيون والمرتد إلى شيوعي قد وقع في حبه. كانت الوسيلة الوحيدة للاستحواذ عليه ولو إلى حين هي أن يبعثنا إلى يونج جينج. ليصير هو خلال الأيام الأربعة التي يستغرقها الذهاب والإياب مالك المنبه.

عند نهاية شهر أغسطس، أي بعد مضي شهر من الشجار الذي أثلج علاقتنا الدبلوماسية مع (بينوكلار) ذهبنا من جديد إلى المدينة ترافقنا الخياطة الصغيرة هذه المرة.

كان الفيلم الذي يعرض في الهواء الطلق، على ميدان كرة السلة، في المدرسة الثانوية، المزدحم بالمشاهدين هو نفس الفيلم الكوري الشمالي، بائعة الزهور الصغيرة الذي كنا، (لو) وأنا، قد شاهدناه من قبل وحكيناه إلى سكان القرية وهو ذات الفيلم الذي دفع بالساحرات العجائز الأربع

إلى ذرف الدموع في منزل الخياطة الصغيرة. كان فيلماً رديئاً وما من حاجة لمشاهدته ثانية لمعرفة ذلك. مع ذلك لم يكن بوسعي رؤيته من جديد وأن يعكر كلية مزاجنا المرح، كنا سعداء لكوننا نضع أقدامنا في المدينة مجدداً. أوه! يالجو المدينة، حتى وإن كانت بالكاد أكبر من منديل جيب، أؤكد لكم أن لرائحة اللحم البقري المطهي بالبصل نكهة مميزة عنها في القرية. كانت هنالك أيضاً الكهرباء وليس فقط مصابيح الكيروسين. مع ذلك لا أريد أن يفهم من كلامي أننا كنا مفتونين بالمدينة. لكن مهمتنا المتمثلة في حضور العروض السينمائية كانت توفر علينا أربعة أيام من العمل السخرة في الحقول. أربعة أيام من حمل (الروث الإنساني والبشري) على الظهور ومن حراثة وحل حقول الأرز بواسطة ثيران أذيالها الطويلة توشك في كل لحظة أن تسوطك بقوة في الوجه. السبب الآخر لمزاجنا المرح هو صحبتنا للخياطة الصغيرة. وبما أننا وصلنا بعد أن بدأ العرض فلم يعد هنالك إلا أمكنة للوقوف إلى جانب الشاشة من ناحية اليسار حيث كل شيء يبدو بالمقلوب. بيد أن الخياطة الصغيرة لم ترد أن تفوت هذا المشهد الرائع. أما بالنسبة لنا فقد كانت متعة كبيرة أن نشاهد وجهها الجميل يضاء بالانعكاسات الملونة والمنيرة التي ترسلها الشاشة. أحياناً تبتلع العتمة وجهها فلا يعود يرى سوى عينيها مثل رقعتين فوسفوريتين. بغتة وبمجرد حدوث تغير ما في العرض يتوهج هذا الوجه ويتلوّن ويزداد استدعاءً للأحلام. من بين جميع المشاهدات اللاتي كان عددهن زهاء الألفين إن لم يكن أكثر، كانت هي دون أدنى شك الأكثر جمالاً. وأمام نظرات الغيرة التي أحاطنا بها الرجال الآخرون كان يتصاعد من أعماقنا نوع من الزهو الذكوري. عند منتصف الفيلم الذي كان قد مضى على بدايته حوالي نصف ساعة.

أدارت رأسها ناحيتي ووشوشتني في الأذن بشيء أخرسني:

- كان أكثر تشويقاً حين حكيته أنت.

كان الفندق الذي نزلنا فيه رخيصاً للغاية، خمسين سنتيماً للغرفة، أي ما يساوي بالكاد ثمن طبق اللحم البقري المطهي بالبصل. ناعساً على مقعد في حوش الفندق، دلنا الحارس الليلي، وهو عجوز أصلع كنا نعرفه من قبل، بإصبعه على غرفة في الفندق كان نورها مضاءً وهمس لنا أن امرأة أنيقة في الأربعين من عمرها قدمت من عاصمة مقاطعتنا واستأجرت الغرفة لقضاء الليل وستغادر في الغد إلى جبل فينيق السماء، ثم أضاف:

- تبحث عن ابنها لقد وجدت له عملاً مناسباً في المدينة.

- ابنها يمضي مدة إعادة التأهيل؟ سأله (لو).

- نعم مثلكما.

من يمكن أن يكون هذا السعيد والمحظوظ الذي سيكون أول المحررين من بين مئات الشباب الذين يعاد تأهيلهم في جبلنا؟ ظل هذا السؤال حتى منتصف الليل مستحوذاً علينا، معذباً أرواحنا، وساجناً إيانا في يقظة محمومة رحنا نتآكل أثناءها من الغيرة. كانت اسرة الفندق قد أصبحت مشتعلة ويستحيل النوم عليها. لم يتسنَ لنا أن نحزر من يكون هذا المحظوظ مع أننا أحصينا أسماء كل الشباب باستثناء (أبناء البرجوازيين) مثل (بينوكلار) و(أبناء أعداء الشعب) مثلنا، هذا يعني هؤلاء الذين يتمتعون بنسبة ثلاثة من ألف من الحظ فقط.

في اليوم التالي، على طريق العودة قابلتُ هذه المرأة التي جاءت لتخلص ابنها. حدث ذلك بالتحديد قبل أن تتسلق طريق الصخور لتتوارى فيما بعد في الغيوم البيضاء لقمم الجبال. تحت أقدامنا كان يمتد منحدر

فسيح، مغطى بأضرحة تبتية وصينية. كانت الخياطة الصغيرة تريد أن ترينا أين يرقد جثمان جدها من ناحية الأم. وبما أنني لم أكن أحب كثيراً المقابر فقد تركتها تخترق بدوني غابة شواهد القبور الذي كان بعضها نصف مطمور في التربة بينما بعضها الآخر مغطى بالأعشاب الكثيفة.

على جانب الطريق وتحت نتوء صخري أوقدت ناراً في بعض الأغصان والأوراق الجافة كما جرت العادة. أخرجتُ من كيسي بعض البطاطا ووضعته في جوف الرماد كي ينضج. في تلك اللحظة رأيت المرأة وهي تجلس على كرسي خشبي مشدود بسيور جلدية إلى ظهر رجل شاب. الأمر المثير للدهشة أنها كانت، وهي في هذا الوضع الخطر، تحيك قطعة من الصوف، كما لو أنها كانت في شرفة وقد بدا عليها هدوء غير بشري تقريباً.

كانت تتمتع بقوام نحيل، يتوارى داخل سترة مخملية بلون أخضر فاتح، وبنطلون بيج وزوج من أحذية جلدية لينة ومطلية بلون أخضر شاحب ذات أرضية مسطحة. عندما وصلت إلى مستوى ارتفاعنا أراد حمالها أن يستريح، وضع الكرسي على صخرة مربعة. وجلس على الأرض. أما هي فلم تنزل عن الكرسي، كما أنها لم تلق بنظرة نحو البطاطا المشوية ولم توجه للحمال أي كلمة مهذبة بل استمرت في الحياكة. سألتها بلهجة محلية إذا كانت قد أمضت ليلتها المنصرمة في فندق المدينة. أكدت كلامي بهزة خفيفة من رأسها ثم عادت إلى عملها، كانت امرأة أنيقة وثرية دونما شك وليس بوسع شيء أن يثير دهشتها على ما يبدو.

بواسطة أحد الأغصان نقرتُ حبة بطاطا ورفعتها من الكومة المدخنة. طبطبتُ عليها لأزيل التراب والرماد. قررت أن أغير من لهجتي.

- أتريدين أن تتذوقي شَويَة جبلية؟

- تتكلم بلهجة أهالي (شونجدو)! صرخت بصوت عذب ولذيذ.

أوضحت لها أن عائلتي تعيش في (شونجدو). نزلت حالاً من كرسيها وقطعة الصوف في يدها. قرفصت أمام النار التي أوقـدتها. دون أدنـى شك لم تكن معتادة على الجلوس في هكذا مكان. تناولت البطاطا من يدي ونفخت عليها وهي تبتسم. ترددت في قضمها.

- ماذا تفعل هنا؟ يعاد تأهيلك؟

- نعم في جبل فينيق السماء.

أجبت مفتشاً في الجمر عن بطاطا أخرى.

- حقاً؟ صرخت. ابني يعاد تأهيله في هذا الجبل أيضاً. ربما تعرفه. لابد أنه الوحيد بينكم الذي يرتدي نظارة.

لدى سماعي ذلك أخطأت الجمر فانغرز غصني في الخـواء. شـرع الدوي يتردد في رأسي فجأة كما لو تلقيت صفعة.

- هل أنت أم (بينوكلار)؟

- نعم.

- إذن فهو أول المحُررين!

- أوه، أنت تعلم؟ نعم، سيمضي فترة إعـادة تأهيلـه بالعمـل فـي الصحيفة الأدبية لمقاطعتنا.

- ابنك متخصص في الأغاني الشعبية.

- أعرف. في البدء كنا خائفين من أن يضيع وقته في هـذا الجبـل. لكن لا. لقد جمع أغاني، كيّفها وعدّلها بحيث أثارت كلمات هذه الأغاني الفلاحية الرائعة إعجاب رئيس التحرير لدرجة كبيرة.

- بفضلك استطاع القيام بهذا العمل. لقد زودتيه بالكثير من الكتب لقراءتها.

- نعم بالتأكيد.

وصمتت بغتة وراحت تحدق فيَّ بارتياب.

- كتب؟ أبداً - قالت ببرود- شكراً على البطاطا.

كانت سريعة الانفعال حقاً. ندمت لأنني حدثتها عن الكتب وأنا أراها تضع خفية نصيبها من البطاطا في الكوم المدخن، نهضت وتهيأت للمغادرة.

فجأة استدارت ناحيتي ووجهت إليَّ السؤال الذي كنت أخشى.

- ما اسمك؟ عند وصولي سأخبر ابني أنني قابلتك.

- اسمي؟ (قلت بتردد خجول). اسمي (لو).

وما أن خرجت هذه الكذبة من فمي حتى شعرت بالكراهية تجاه نفسي حد الموت. سمعت أم (بينوكلار) تصيح بصوتها العذب كما لو أنها تتكلم مع صديق قديم:

- ابن طبيب الأسنان الشهير! يا للمفاجأة! أليس هو من عالج أسنان زعيمنا (ماو)؟

- من قال لك هذا؟

- ابني، في أحد رسائله.

- لا علم لي بذلك.

- ألم يخبرك والدك بذلك؟ يا للتواضع! لا بد أنه كان عظيماً، طبيب أسنان عظيم جداً.

- في الوقت الحالي هو في السجن، بوصفه عدواً للشعب.

- أعرف. وضع والد (بينوكلار) ليس أحسن حالاً - خفضت صوتها - لكن لا تزعج نفسك، اليوم الجهل هو الموضة وذات يوم سيحتاج المجتمع إلى أطباء أكفاء. الزعيم (ماو) نفسه سيحتاج لأبيك.

- اليوم الذي سأرى فيه أبي، سأنقل له كلماتك الرائعة.

- يجب أن تجد شيئاً ما يشغلك. أما أنا فكما ترى، أعمل دون توقف في حياكة هذه الكنزة الزرقاء. لكن هذا في الظاهر فحسب أما في الباطن، فأنا أؤلف قصائدي في رأسي بينما أقوم بالحياكة.

- مهلاً، إنك تدهشينني! - قلت لها - وأي نوع من القصائد؟

- هذا سر مهني، أيها الصبي.

بطرف إبرة الحياكة، التقطتْ إحدى حبات البطاطا، قشرتها، وحشرتها ساخنة في فمها.

- أتعلم أن ابني يحبك كثيراً؟ غالباً ما حدثني عنك في رسائله.

- حقاً.

- نعم، إنه يكره رفيقك، هذا الذي يعيش معك في نفس القرية.

هنأت نفسي لاستعارتي هوية (لو). كان إلهاماً حقيقياً.

- ولماذا؟

سألتها محاولاً الاحتفاظ بهدوئي.

- يبدو أنه شخص مهووس. إنه يشك أن ابني يحتفظ بحقيبة سراً. في كل مرة يزوره يفتش في كل أنحاء منزله.

- حقيبة كتب.

- لا أعلم شيئاً عن ذلك - قالت وقد عادت إلى ارتيابها - في إحدى الأيام وقد فقد القدرة على تحمله، سدد إليه لكمة ثم ضربه. يبدو أن دمه يراق في كل مكان.

نفيتُ كلامها. كنت على وشك أن أقول لها إنه بدلاً من تزوير أغانٍ جبلية فإن على ابنها أن يعمل ممثلاً في السينما لعله بذلك يمضي وقته

في اختلاق مشاهد بلهاء من هذا النوع.

- لم أكن أعرف من قبل أن ابني من القوة بحيث يتعارك. كتبت لأناقشه في الأمر وأقول له بأن لا يضع نفسه ثانية في هذا النوع من المواقف الخطيرة.

- سيصاب رفيقي بالكآبة إذا ما علم أن ابنك سيغادر نهائياً.

- ولماذا؟ هل يريد أن ينتقم؟

- لا. لا أظن ذلك. لن يبقى لديه أي أمل في أن يضع يده على الحقيبة المخبأة.

- بالتأكيد! يا للإحباط الذي سيصيب هذا الصبي!

كان صبر الحمال قد نفد. قالت لي وداعاً بعد أن تمنت لي حظاً سعيداً.

اعتلت كرسيها. أمسكت قطعة الصوف واختفت.

بعيداً عن الطريق الرئيسية كان ضريح جد صديقتنا الخياطة الصغيرة محصوراً في زاوية باتجاه الجنوب، بين أضرحة بؤساء آخرين، جميعها ذات أشكال دائرية. لم يعد بعضها أكثر من نتوءات طينية متفاوتة الحجم. فيما بعضها الآخر أحسن قليلاً، بشواهدها الحجرية المنصوبة بالعرض وسط أعشاب عالية ونصف ذابلة. الضريح الذي كانت الخياطة الصغيرة تترحم على صاحبه كان على درجة كبيرة من التواضع تجعله يندرج في حدود البؤس: كان عبارة عن حجر رمادي داكن، موشى بشرايين زرقاء، تآكل خلال عقود عديدة من عوامل التعرية ومدون عليه فقط اسم وتاريخان يلخصان وجوداً لم تعد له قيمة بمشاركة (لو) وضعت عليه زهوراً قَطَفَتْها من الجوار: Cercis ذات أوراق خضر مبرنقة وعلى شكل قلب، بخور مريم الذي ينحني بأناقة، بلسمينات تلقب

بـ(حوريات الفينيق) وأيضاً بضعة سحلبيات برية تتفرد ببتلاتها ذات البياض اللبني النقي التي ترصع قلب زهرتها الناعم.

- لماذا أنت عابس؟ سألتني الخياطة الصغيرة من بعيد.

- إنني في حداد على (بلزاك).

أجبت ثم حكيت لهم خلاصة مقابلتي مع الشاعرة المتنكرة في هيئة حائكة، أم (بينوكلار). لكن لا السرقة المخجلة لأغاني الطحان العجوز ولا وداع (بلزاك) ولا المغادرة الوشيكة لـ(بينوكلار) بلبلت أفكارهم كما حدث معي، بل على العكس. دور ابن طبيب الأسنان الذي ارتجلته هو الذي جعلهم ينفجرون بضحك تردد بين جنبات المقبرة الصامتة.

فيما كنت أشاهد الخياطة الصغيرة تضحك وقعت دفعة واحدة تحت تأثير فتنتها، إذ بدت تتمتع بجمال مختلف عن ذلك الذي قضقضني خلال جلسة سينما الهواء الطلق. كانت ضحكتها تضفي عليها من الرقة ما جعلني أفكر في الزواج منها في الحال، لولا أنها كانت حبيبة (لو). في ضحكتها تنسمت أريج السحلبيات البرية الذي كان أطيب رائحة بين الزهور الأخرى الموضوعة على القبر، فقد كان لأنفاسها نكهة مسكية ومتلظية.

جثت أمام قبر جدها فيما بقينا، (لو) وأنا، واقفين نراقبها وهي تنحني لمرات عديدة مقدمة إليه كلمات مواسية في نوع من حوار داخلي تجلى على هيئة غمغمة عذبة. لكنها فجأة أدارت رأسها ناحيتنا.

- ماذا لو سرقنا كتب (بينوكلار).

عن طريق الخياطة الصغيرة، تابعنا ساعة بساعة تقريبا ما كان يجري في قرية (بينوكلار) خلال الأيام السابقة لمغادرته التي كان من المتوقع أن تكون في ٤ سبتمبر. فلكونها خياطة، كان يكفيها للاطلاع على الأحداث أن تختار موضوعات لثرثرات تستدرج إليها زبائنها الذي كان بينهم من النساء ما يعادل عدد الرجال ومن الشيوخ مثل الأطفال والآتين من جميع القرى المحيطة. لم يكن يفوتها شيء.

لاقامة احتفال له كل مظاهر الأبهة بمناسبة انتهاء إعادة تأهيله، راح (بينوكلار) وأمه الشاعرة يعدان العدة لحفل كان من المزمع إقامته عشية مغادرتهما. كانت هنالك شائعة تقول أن الأم قدمت رشوة لمأمور القرية مقابل أن يعطي موافقته على ذبح ثور يقدم كمأدبة في الهواء الطلق لجميع أهالي القرية. ما لم يكن معروفاً بعد هو أي ثور سيكون الضحية وكيف سيذبح، لأن القانون كان يحرم ذبح الأثوار المستخدمة في حراثة الحقول.

مع أننا كنا الصديقين الوحيدين للسعيد المحظوظ إلا أن قائمة المدعوين لم تتضمن اسمينا. لم نأسف لذلك، لأننا كنا قد اتخذنا قرارنا بتنفيذ خطة السرقة أثناء الوليمة التي كانت تبدو اللحظة المناسبة لسرقة حقيبة (بينوكلار) السرية.

في منزل الخياطة الصغيرة، وفي درج خزانة كانت تمثل مهر والدتها، عثر (لو) على مسامير طويلة وصدئة. مثل لصوص محترفين صنعنا مفتاحاً عمومياً. كم كانت الشغلة مبهجة فقد قمت بدلك المسمار الأكثر طولاً على إحدى الأحجار إلى أن صار حارقاً بين أصابعي، ثم مسحته على بنطالي المليس بالوحل ونظفته لكي يستعيد مظهره النقي

والمتألق. حين أدنيته من وجهي خيل إليّ أنني أرى عينيّ وسماء نهاية الصيف تنعكس عليه. تكفل (لو) بالقيام بالمرحلة الأكثر أهمية. وضع المسمار على سطح أحد الأحجار وامسكه بيد ورفع بالأخرى المطرقة التي رسمت في سقوطها على طرفه المسنون منحنى لطيفاً في الهواء، محدثة فيه بعض التسطح، ارتفعت من جديد لتعاود سقوطها عليه...

قبل موعد تنفيذ السرقة بيوم أو اثنين حلمت. رأيت في حلمي (لو) يودع المفتاح لديّ. كان نهاراً مسكوناً بالضباب، دنوت من منزل (بينوكلار) سائراً على أصابع قدميّ تقريباً فيما كَمَنَ (لو) تحت إحدى الأشجار يستطلع الطريق. كانت الصرخات والأغاني الثورية التي يرددها القرويون المَدعون إلى المأدبة المقامة على الساحة التي تتوسط القرية، تتناهى إلى مسامعنا. كان باب منزل (بينوكلار) يتألف من درفتين خشبيتين، احداهما مثبتة في ثقب محفور على العتبة والثانية في العارضة العلوية للباب. كان الباب مغلقاً بواسطة سلسلة تضم الدرفتين إلى بعضهما ويتصل طرفاها بقفل نحاسي. في الجو الضبابي كان القفل بارداً ورطباً مما أطال مدة مقاومته للمفتاح. أدرت هذا الأخير في كل الاتجاهات، ضاغطاً عليه إلى درجة أوشك معها أن يتحطم داخل الثقب. حاولت بكل قواي أن أرفع إحدى الدرفات لانتزاع نتوئها السفلي من ثقب العتبة. لكن محاولتي هذه باءت بالفشل كذلك. حاولت مجدداً بالمفتاح وفجأة طق وانفتح القفل. فتحت الباب. وما أن وضعت قدميّ على العتبة حتى تسمرت في مكاني: يا للرعب! كانت أم (بينوكلار) هنا أمامي بشحمها ولحمها جالسة على كرسي وراء طاولة تحوك بهدوء. ابتسمت لي دون أن تتفوه بكلمة. أحسست بالدم يتدفق إلى وجهي وبالسخونة تغزو أذنيّ كنت أشبه بصبي خجول يقف في حضرة حبيبته للمرة الأولى. لم تصرخ لا طلباً للمساعدة ولا للإخطار عن لص. تمتمت

متلعثماً بعبارة استفسار إن كان ابنها في البيت. غير أنها لم تجب بل استمرت في الابتسام، بأيدٍ ذات أصابع نحيلة وطويلة ومغطاة ببقع داكنة وبشامات كانت تحوك دون أن تمنح نفسها ثانية من الراحة. حركات الإبرة التي كانت تدور وتدور، في انتقالها من غرزة إلى أخرى تبرز وتختفي، بهرت عينيّ. استدرت نصف دورة وخرجت، راداً الباب ورائي. بحذر، أغلقت القفل ومع أنني لم أسمع أي صرخة صادرة من الداخل إلا أنني وليت هارباً بسرعة جنونية وفي تلك اللحظة استيقظت منتفضاً من سريري.

رغم أن (لو) لم يفتأ يردد على مسامعي أن السرقات المتزامنة مع الأعراس يحالفها الحظ دائماً إلا أنه كان خائفاً مثلي. فكر طويلاً في حلمي وأعاد النظر في خطة الهجوم.

في (٣) سبتمبر وهو اليوم السابق لمغادرة (بينوكلار) وأمه، وعند الظهيرة تعالت من أسفل أحد المنحدرات الصخرية الصرخات المؤلمة لثور يحتضر. كانت من القوة بحيث بلغت مسامع أهل قرية الخياطة الصغيرة. بعد دقائق من سماعها جاء بعض الأطفال وأخبرونا أن مأمور قرية (بينوكلار) دفع عمداً بأحد الأثوار إلى الهاوية.

اتخذ القتل مظهر حادث، فحسب أقوال الجاني فإن الحيوان قام بخطوة خاطئة عند أحد المنعطفات الجبلية الخطيرة مما أدى إلى سقوطه في الخواء ورأسه في المقدمة محدثاً ضوضاء مكتومة مثل تلك الناجمة عن تدحرج صخرة على منحدر، وقع على صخرة ناتئة، ارتد عنها ووقع على أخرى أسفل منها بعشرات الأمتار.

لم يمت الثور مع ذلك. بيد أنني لن أنسى ما حييت التأثير العميق الذي خلفته في نفسي صرخته النائحة والموصولة تلك. سُمعت الصرخة

إلى فناءات المنازل، ثاقبة وشنيعة، غير أنه فيما بعد ظهيرة حارة وهادئة وفي سلسلة جبلية تمتد بلا حدود فإنها انصهرت في صدى اكتسب في تردده بين الجنبات طابعاً ملحاحاً ورناناً ومماثلاً لزئير أسد مسجون في قفص.

خلال ثلاث ساعات ظللنا، (لو) وأنا، نتنقل على مسرح الدراما. كانت صرخات الثور قد توقفت. شقينا لأنفسنا ممراً وسط الجمع المحتشد على حافة الهاوية. قيل لنا أن أمراً بالسماح بذبح الحيوان وصل من مدير الناحية وإن (بينوكلار) وبضعة قرويين وعلى رأسهم المأمور نزلوا على أقدامهم المنحدر ليغرسوا سكيناً في نحر الثور مستقويين بهذا الغطاء القانوني.

عند وصولنا كان الذبح قد تم. ألقينا نظرة في أعماق الهاوية، ميدان تنفيذ حكم الإعدام، فرأينا (بينوكلار) مقرفصاً أمام الكتلة الهامدة للثور، يتلقى بواسطة قبعة مصنوعة من أوراق الغاب الدم النازف من عنق الثور. حمل ستة من أهل القرية جثة الثور على ظهورهم وصعدوا بها المنحدر مرددين الأناشيد فيما بقي كل من (بينوكلار) والمأمور في الأسفل، جالسين جنباً إلى جنب بالقرب من القبعة الممتلئة بالدم.

- ماذا يفعلون هناك؟

سألت أحد المتفرجين.

- إنهم ينتظرون أن يتخثر الدم. إنه دواء للجبن، إذا أردت أن تصبح شجاعاً فما عليك إلا أن تبتلعه فيما هو فاتر ومزبد.

كان (لو) يتمتع بفضول فطري. دعاني إلى النزول معه إلى طرف الطريق لمتابعة المشهد عن قرب. من وقت إلى آخر كان (بينوكلار) يرفع عينيه باتجاه الجمع دون أن أعرف ما إذا كان قد لاحظ وجودنا أم

لا. أخيراً أخرج المأمور مدية ذات نصل طويل وحاد. بطرف أصابعه داعب شفرتها برقة ثم قطع كتلة الدم المتخثرة إلى قسمين، ناول أحدهما إلى (بينوكلار) واحتفظ بالآخر لنفسه.

لم نعرف أين كانت أم (بينوكلار) في تلك اللحظة. يا ترى هل تمنت أن تكون هنا إلى جوارنا تشاهد ابنها يأخذ كتلة الدم بين راحتيه ويغرق وجهه فيها مثل خنزير يفتش بخطمه في كوم قمامة؟ لقد كان من البخل أنه امتص أصابعه الواحدة تلو الأخرى ليلحس الدم حتى آخر قطرة. على طريق العودة لاحظت أن فمه كان مستمراً في مضغ مذاق هذا العلاج.

– لحسن الحظ – قال لي (لو) – أن الخياطة الصغيرة لم تأت معنا.

خيم الظلام. من الساحة الخاوية التي تتوسط قرية (بينوكلار) أخذت تتصاعد أعمدة الدخان من موقد يستقر عليه قدر كبير يتميز بسعة غير اعتيادية تجعل منه ملكية مشتركة للقرية.

من بعيد، بدا لنا المشهد ذا طابع رعوي ومفعم بالحرارة. لم يكن بوسعنا رؤية لحم الثور المقطع إلى قطع وهو يسلق في القدر الكبير، بيد أن رائحته المتبلة والمتلظية والفظة قليلاً أسالت لعابنا. كان سكان القرية لا سيما النساء والأطفال متجمعين حول الموقد، يلقي بعضهم بالبطاطا في القدر بينما البعض الآخر يذكي النيران بالمزيد من الخشب أو أغصان الأشجار. كانت حبات البيض وسنابل الذرة والفواكه ترتفع حول الوعاء في أكوام. كانت أم (بينوكلار) هي النجم غير المتوج للأمسية. كانت جميلة من بين بنات جنسها، وقد أضفت سترتها المخملية ذات اللون الفاتح على لون بشرتها من البهاء ما جعلها متنافرة مع البشرة الداكنة والمدبوغة للقرويين فيما شُكت على صدرها زهرة من فصيلة

القرنفل ربما. كانت تري نساء القرية قطعة الصوف التي تحيكهـا. لـم تكن قد انتهت منها بعد، مع ذلك ما فتئت تثير صرخات الإعجاب.

استمرت نسائم الليل في حمل رائحة مثيرة للشهية تزداد حدة بمـرور الوقت. لابد أن الثور المضحى به كان معمراً لأن طهي لحمه استـغرق من الوقت أكثر مما يستغرقه طهي عقاب عجوز، وهو ما وضع، لـيس فقط صبرنا في انتظار اللحظة المناسبة للقيام بالسرقة موضـع اختبـار وإنما أيضاً صبر (بينوكلار) المنحدر حديثاً إلى شارب للـدماء: رأينـاه مرات عديدة، مستثاراً مثل برغوث يرفع غطاء القدر، ويغمس أعصـيته فيه، ملتقطاً قطعة كبيرة من اللحم يتصاعد الدخان منها. يشمها. يـدنيها من نظارته بغرض فحصها، ثم يعيدها إلى القدر وقد بدت عليه علائـم الإحباط.

فيما كنت أتوارى خلف صخرة مواجهة للساحة، مغلفاً بالظلام سمعت (لو) الذي كان متوارياً خلف الصخرة المجاورة يغمغم في أذنيَّ:

- هاهو مسمار عشاء الوداع، يا عزيزي.

وأنا أتابع أصبعه بنظراتي، رأيت خمس عجائز، خنثـاوات، يصـلن مرتديات أثواباً سوداء طويلة تفرقع في الـريح الخريفيـة. رغـم بعـد المسافة، ميزت وجوههن بملامحها التي بـدت وكأنهـا منحوتـة مـن الخشب. كانت متشابهة مثل وجوه أخوات. وفي الحال تعرفـت بيـنهن على الساحرات الأربع اللاتي حضرن من قبـل إلـى منـزل الخياطـة الصغيرة.

كان من الواضح أن حضورهن إلى مأدبة الوداع قد رُتب سلفاً مـن قبل أم (بينوكلار). لأنه في أعقاب حوار مـوجز أخرجـت محفظتهـا وأعطت لكل منهن ورقة نقديـة تحـت النظـرات المتقـدة للمـدعوات القرويات.

هذه المرة لم يكن حمل القوس والسهم مقتصراً على ساحرة واحدة فقط. كنا جميعاً مدججات بها. السبب يكمن ربما، في أن مرافقة السعيد المحظوظ إلى البعيد كان يتطلب من الوسائل الحربية أكثر مما يتطلبه السهر على روح مصاب بالملاريا، أو أن المبلغ الذي كان بوسع الخياطة الصغيرة أن تدفعه كان ضئيلاً جداً مقارنة بما ستدفعه الشاعرة التي كانت تتمتع من قبل بشهرة واسعة داخل هذه المقاطعة ذات المائة المليون نسمة.

في انتظار أن يغدو لحم الثور ناضجاً بما يكفي لأن يذوب في الأفواه المسننة، تفحصت إحدى الساحرات الخمس في وهج النار الكبيرة، خطوط راحة الكف اليسرى لـ(بينوكلار).

لم نكن متوارين على مسافة بعيدة جداً من المشهد إلا أنه استحال علينا سماع الكلمات التي تفوهت بها. رأيناها فقط تخفض أهدابها إلى درجة بدت معها كما لو أنها أغلقت عيونها فيما تحركت شفتاها الرقيقتان والملتصقان على فمها المسنن، ناطقة بعبارات استغرقت انتباه (بينوكلار) وأمه. ما أن توقفت عن الكلام حتى تعالت الضوضاء بين القرويين الذين ظلوا حتى هذه اللحظة يراقبونها بصمت مثير للإزعاج.

- هيأتها تدل على أنها أنبأته بموعد حلول كارثة عليه، قال (لو).

- لا بد أنها رأت أن كنزه مهدد بالسرقة.

- لا. بالأحرى رأت أن عفاريت يريدون أن يعترضوا طريقه.

لم تكن توقعاتنا خاطئة، لأنه في اللحظة ذاتها تجمعت الساحرات الخمس ورفعن أقواسهن بحيث جعلناها بحركة واسعة من الأذرع، تتقاطع في الهواء، مرسلات صرخات حادة.

اقتربن من النار وشرعن في تأدية رقصة غرائبية حولها. في البدء

اكتفين، ربما بسبب أعمارهن المتقدمة، بالدوران البطـــيء علـــى شـــكل دائرة، فيما الرؤوس منكسة. بمرور الوقت أخـــذن يـــرفعن رؤوســـهن ملقيات نظرات متوجسة – مثل لصوص – في كافة الاتجاهات، لينكسنها من جديد، مرتلات لوازم شبيهة بأدعية بوذية، تخرج من أفواههن علـــى هيئة غمغمات غير مفهومة، سرعان ما يلتقطها الجمع ليقـــوم مـــن ثـــم بترديدها. رأيت اثنتين منهن يلقـــين بأقواســـهن علـــى الأرض ويهـــزن جسديهما للحظة قصيرة. تكوّن لديَّ انطباع أنهما بهذه التشنجات تحاولان الإيهام بحضور الشيطان أو بأن أشباحاً اخترقت جسديهما وحولتها إلـــى وحشين شنيعين ومختلجين. فيما كانت الثلاث الأخريات يقمـــن – علـــى غرار محاربين – بحركات رمادية مكثفـــة فـــي اتجاههمـــا مرســـلات صرخات تحاكي على نحو مبالغ فيه ضوضاء انطلاق الرماح. كـــن – بأثوابهن الطويلة السوداء التي تنفرد في الجو الملبد بالدخان على إيقـــاع الرقص، ثم تنسدل مثيرة، في انجرافها على الأرض، سحابات من الغبار – شبيهات بغربان ثلاثة.

كانت حركات (المسكونتين بالأشباح) تغدو أثناء الرقص أكثر فـــأكثر تثاقلاً، كما لو أن السهام اللامرئية اللاتي تلقينها على وجهيهما مسمومة. في اللحظة التي أوشكنا فيها على السقوط المبهر للأنظار، غادرنا، (لـــو) وأنا، المكان.

كان من المفترض أن تبدأ المأدبة بعد مغادرتنا لذا بمجرد أن تجاوزنا القرية حتى سمعنا الجوقة التي صاحبت رقص الساحرات تغـــرق فـــي الصمت.

ما من أحد من سكان القرية، بلا استثناء، لم يـــرد أحـــد أن يحظـــى بنصيب من لحم الثور المطهي في حساء الكرنب المتبل بالفلفل المطحون

وبكبش القرنفل. كانت القرية مقفرة تماماً، كما توقع (لو) (هذا الحكواتي الممتاز لم يكن مجرداً من الذكاء الاستراتيجي). وفجأة خطر في بالي الحلم الذي رأيته.

- أتريدني أن أقوم بدور المراقب؟ سألت (لو).

- لا لسنا في حلمك.

❁ ❁ ❁

بلل (لو)، بين شفتيه، المسمار العتيق الصدئ الذي تحول إلى مفتاح عمومي. دخل هذا الجسم بصمت في ثقب القفل. دار باتجاه اليسار، ثم اليمين، عاد ناحية اليسار. تقهقر مسافة مليمتر ثم طق وأصبح القفل مفتوحاً.

دلفنا إلى الداخل، مغلقين الباب وراءنا. كان الظلام دامساً في الداخل فلم نميز شيئاً. لم يميز أحدنا الآخر تقريباً. غير أن أنفينا التقطا رائحة الأشياء المعدة للنقل مما جعلنا نتآكل من الغيرة.

من خلال الشق بين الدرفتين، ألقيت نظرة إلى الخارج: ما من طيف إنساني في اللحظة الراهنة. لمبررات تتعلق بالأمن، أي لتفادي أن تلاحظ العيون الشريرة لعابر محتمل غياب القفل دفعنا الدرفتين نحو الخارج بقوة حتى أسفرتا عن انفراجة بينهما سمحت لـ(لو)، كما توقع، أن يمرر إحدى يديه إلى الخارج ويعيد وضع السلسلة في مكانها ويغلق طرفيها بالقفل.

لكننا نسينا أن نتفحص النافذة التي كنا ننوي الخروج من خلالها بعد الانتهاء من المهمة. ما بهرنا فعلاً هو أنه ما أن أشعل (لو) المصباح اليدوي حتى وقعت عيوننا على الحقيبة الجلدية، غنيمتنا الخرافية موضوعة فوق الأمتعة كما لو أنها كانت في انتظارنا، تتحرق شوقاً لأن تُفتح.

- فزنا! قلت لـ(لو).

قبل بضعة أيام وفيما نحن نعد الخطة، كنا قد وصلنا إلى نتيجة مفادها أن نجاح زيارتنا غير الشرعية يعتمد على شيء واحد: معرفة أين يخبئ (بينوكلار) حقيبته. أين يمكن العثور عليها؟ كان (لو) قد استعرض – في ذهنه – كل الآثار المحتملة واستطلع كل الحلول المتخيلة. وهكذا توصل، ولله الحمد، إلى وضع مخطط من المحتم تنفيذه خلال مأدبة الوداع. كانت فرصة مناسبة فعلاً: على الرغم من الدهاء الذي تتمتع به الشاعرة بحكم عمرها إلا أنها لم تتمكن من الإفلات من حب النظام، فلم تتحمل فكرة البحث عن حقيبة في صباح المغادرة. كل شيء كان جاهزاً سلفاً ربما، ومرتباً على نحو مثالي.

دنونا من الحقيبة التي كانت مربوطة بحبل غليظ من القش المجدول والمعقود على هيئة صليب. فككنا حبلها وفتحناها بحذر. أكوام من الكتب تلامعت داخلها تحت مصباحنا اليدوي: استقبلنا الكتاب الغربيون بالأحضان، يقف على رأسهم صديقنا القديم (بلزاك) ممثلاً بخمس أو ست من رواياته. يليه فيكتور هيجو، ستاندال، دوماس، فلوبير، بودلير، رومو رولاند، روسو، تولستوي، جوجول ديستوفيسكي ومن الإنجليز: ديكنز، كيبلنج، أميلي برونتي...

يا لها من فتنة! أحسست بنفسي أغيب في ضباب الثمالة. أخرجت الروايات الواحدة تلو الأخرى من الحقيبة. فتحتها. تأملت صور مؤلفيها وناولتها إلى (لو) أولاً بأول. كنت بمجرد أن ألمسها بأطراف أصابعي يخيل إليَّ أن يديَّ تشحبان لاتصالهما هذا بحيوات بشرية.

- يذكرني هذا بمشهد في أحد الأفلام – قال (لو) – حين يفتح قطاع الطريق حقيبة ممتلئة بأوراق نقدية...

- هل تحس بدموع الفرح تصعد إلى عينيك؟

- لا. أُحس بالضغينة.

- أنا أيضاً، أشعر بالحقد على كل هؤلاء الذين حرمونا من هذه الكتب.

ما أن نطقت بهذه الجملة حتى تملكني الرعب كما (لو) من احتمال وجود متنصت يتوارى في مكان ما من الغرفة. إذ أن نطق عبارة مثل هذه حتى من قبيل السهو كان من الممكن أن يكبد المرء سنوات عديدة من السجن.

- لنذهب!

قال (لو) وهو يغلق الحقيبة.

- انتظر!

- ماذا هنالك؟

- أنا متردد... لا تزال أمامنا فرصة أخرى للتفكير: بكل تأكيد سيشك (بينوكلار) إننا نحن من سرق الحقيبة سنهلك إن فضحنا. لا تنسَ أنه ليس لدينا آباء كالآخرين.

- أخبرتك من قبل أن أمه لن تسمح له بذلك. وإلا سيعلم الجميع أن ابنها كان يحتفظ بكتب ممنوعة! ومن ثم لن يتمكن أبداً من مغادرة فينيق السماء.

بعد صمت استمر لثوان، فتحت الحقيبة:

- لو أخذنا بعض الكتب فقط، لن يلاحظوا ذلك.

- لكنني أريد قراءتها كلها.

أكد (لو) على نحو قاطع ثم أعاد إغلاق الحقيبة، واضعاً يده عليها كما لو كان مسيحياً يؤدي قسماً، صرح لي:

- عن طريق هذه الكتب سأغير الخياطة الصغيرة. لن تبقى مجرد جبلية بسيطة.

اتجهنا بحذر ناحية الغرفة. سرتُ في المقدمة وفي يدي المصباح، يتبعني (لو) والحقيبة في يده. كانت ثقيلة على ما يبدو، لأنني سمعتها أثناء اجتيازنا الحجرة ترتطم بسيقان (لو) ثم بسرير (بينوكلار) الذي لم يكن يفصل بينه وبين سرير والدته الصغير والمرتجل، بقوائمه الصغيرة سوى ممرٍ ضيق.

ما أصابنا بالدهشة هو أن النافذة كانت موصدة. حاولنا دفعها، بيد أنها لم تصدر سوى صرير خافت، حشرجة تقريباً دون أن تتزحزح قيد أنملة.

لم يبدُ لنا هذا الوضع كارثياً. فقد استدرنا بهدوء داخل صالة الطعام مستعدين للقيام بالعمل الذي سبق وقمنا به: المباعدة بين الدرفتين وتمرير اليد عبر الشق وإيلاج المفتاح العمومي في القفل النحاسي.

وفجأة أطلق (لو) ناحيتي صفيراً.

- صه!

انتابني الفزع فأطفأت المصباح في الحال. جمدتنا ضوضاء الخطوات المستعجلة المتناهية من الخارج. احتجنا لدقيقة كاملة لنتحقق من أن الخطوات كانت تتقدم باتجاهنا. في اللحظة ذاتها سمعنا بغموض شخصين، رجل وامرأة، لكن استحال علينا أن نميز صوتيهما هوية (بينوكلار) وأمه. تقهقرنا باتجاه المطبخ وقد هيئنا أنفسنا لأسوأ الاحتمالات. في اجتيازنا الممر الضيق بين السريرين أضأت لثانية المصباح فيما كان (لو) يعيد وضع الحقيبة على الأمتعة. عملنا خيراً بقيامنا بهذا التصرف الاحتياطي، الأم وابنها كانا سيضبطوننا متلبسين بالجرم إذ أنهما كانا يتجادلان قرب الباب.

– أعرف. دم الثور هو سبب توعكي – قال الابن – هنالك غـــازات نتنة تتصاعد من معدتي إلى الحلق.

– لحسن الحظ، جلبت معي علاجاً لسوء الهضم، أجابـــت الأم وقـــد أصابنا الفزع كلية، لم يتسنَ لنا أن نعثر في المطبخ على زاوية نتـــوارى فيها. كان الظلام حالكاً إلى حد أننا لم نكن نرى شيئاً. اصطدمت بـــ(لو) الذي كان يرفع غطاء جرة الأرز الكبيرة فاقداً صوابه.

– صغيرة زيادة، همس (لو).

تناهى إلى مسامعنا نشاز ضوضاء السلسلة، يليه صوت انفتاح البـــاب الذي تزامن مع ولوجنا إلى الغرفة حيث انحشر كل منا تحت سرير.

كل شيء تم بشكل مضطرب، فبدلاً مـــن أن أختبـــئ تحـــت ســـرير (بينوكلار)، أنا الأكثر ضخامة ومتانة من (لو)، انحشرت تحت ســـرير والدته، الأقل خصوصية والمزود بشكل خاص بدلو مـــراحيض، دلـــت عليه رائحته غير المريحة التي أمكن تمييزها بسهولة. كانت خلية مـــن الذباب تحلق حولي. رحت أتلمس بأصابعي فيما حولي، محاولاً التمـــدد بقدر ما يسمح لي ضيق المكان، بيد أن رأسي أوشكت أن تقلـــب الـــدلو المقرف، سمعت رجة خفيفة تصاعدت على أعقابها رائحة نفاذة ومقززة. بدافع شعور غريزي بالنفور قام جسدي بحركة خشنة أحدثت ضجة شاذة وفاضحة.

– ألم تسمعي شيئاً ما، ماما؟

أتى صوت (بينوكلار) متسائلاً من صالة الطعام التي كنا قد دلفا إليها وأشعلا مصباح الكيروسين.

– لا.

ثم خيم صمت مطبق بدا وكأنه سيدوم إلـــى الأبـــد. تخيلـــت كيـــف

سيصيخان السمع في سكون مسرحي لالتقاط أدنى نأمه.

- لا أسمع سوى بطنك تقرقر.

قالت الأم.

- دم الثور هو الذي أصابني بعسر الهضم. أحس بالإنهاك ولا أدري ما إذا كنت سأقوى على العودة إلى الحفل.

- لا تقول ذلك، لا بد من العودة! هاهي الأقراص، خذ اثنين منها، فإن ذلك سيهدئ آلام معدتك.

ألحت الأم بصوت صارم.

سمعتُ الابن يطيع ويتجه ناحية المطبخ ليشرب بعض الماء دونما شك. نور مصباح الكيروسين ابتعد معه. مع أنني لم أعد أرى (لو) في الظلام إلا أنني أحسست به يهنئ نفسه كما يهنئني لعدم البقاء في المطبخ.

بمجرد أن ابتلع الأقراص عاد إلى صالة الطعام.

- ألم تحزم حقيبة الكتب؟ سألته أمه.

- بلى، لقد فعلت ذلك بنفسي هذا المساء.

- لكن انظر! الحبل ملقى على الأرض.

عنايتك أيتها السماء! ما كان ينبغي لنا أن نفتحها. وسرت في عمودي الفقري اختلاجة. تمالكت نفسي ورحت أفتش، عبثاً، عن نظرات شريكي في الظلمة.

كان صوت (بينوكلار) الهادئ دليلاً على استغرابه الشديد:

- لقد أخرجت الحقيبة في الظلام من الأرض حيث دفنتها خلف المنزل. عند عودتي نفضت التراب والقاذورات الأخرى التي كانت تغطيها وتأكدت بدقة من أن الكتب لم تتعطن. وفي النهاية، بالضبط قبل الذهاب لتناول الطعام مع القرويين ربطتها بحبل القش الغليظ هذا.

- ماذا حدث إذن؟ هل دخل شخص ما المنزل أثناء الحفل.

اتجه (بينوكلار) نحو الغرفة وفي يده المصباح. رأيت عيون (لو) تحت السرير المواجه تلمع في النور المقترب. شكراً لله، فقد توقفت قدماه على العتبة ليستدير قائلاً لأمه:

- غير ممكن، النوافذ موصدة كما تركناها والباب مغلق بالقفل.

- أعتقد أن من الواجب أن تلقي نظرة في الحقيبة لترى إن نقصت بعض الكتب. إن رفيقيك كليهما يثيران خوفي. كم من المرات كتبت لك أنه لا يتوجب معاشرة مثل هذين الشخصين، إنهما شريران!. لكنك لم تسمعني.

سمعت الحقيبة تُفتح و (بينوكلار) يجيب:

- صادقتهم، لأنني فكرت أنك وأبي تعانيان من مشاكل في الأسنان. وأنه في يوم ما ربما سيكون أب (لو) مفيداً لكما.

- حقاً.؟

- نعم ماما.

عندها قالت الأم وقد صار صوتها عاطفياً:

- أنت لطيف يا بني حتى في وضع صعب كهذا ما زلت تفكر في أسناننا.

- ماما، تفحصت الحقيبة: لم يختف أي كتاب.

- هذا أحسن..، كانت إشارة زائفة. هيا لنغادر!..

- انتظري، ناوليني ذيل الثور سأضعه في الحقيبة.

بعد بضعة دقائق وفيما (بينوكلار) يربط الحقيبة سمعته يصرخ:

- اللعنة!

- تعرف أني لا أحب الشتائم. يا بني.

- لديَّ إسهال.

أعلن (بينوكلار) بصوت مرتفع.

- دلو الغائط في الغرفة، اذهب عليه.

انتابنا ارتياح كبير ونحن نسمع (بينوكلار) يركض نحو الخارج.

- أين ستذهب؟

تساءلت الأم بصوت عال.

- إلى حقل الذرة.

- أخذت معك بعض الأوراق؟.

- لا.

أجاب صوت الابن وهو يبتعد.

- سأتبعك بما يلزم منها!

صرخت الأم.

كم كنا محظوظين أن شاعر المستقبل هذا كان مهووساً بإفراغ بطنه في الهواء الطلق! بوسعي أن أتخيل المشهد الذي كان سيثير فينا من الرعب أكثر من المهانة فيما (لو) ولج إلى الغرفة جاذباً بسرعة دلو الغائط من تحت السرير وجلس عليه مفرغاً دم الثور تحت أنوفنا في ضجيج له دوي سقوط شلال مندفع.

بمجرد أن خرجت الأم راكضة، سمعت (لو) يهمس في الظلام.

- بسرعة! لننسحب!

عند اجتيازنا صالة الطعام، تناول (لو) حقيبة الكتب. بعد ساعة من الركض المجنون على الطريق وعندما قررنا أخيراً أن نستريح، فتحها. كان الذيل الأسود للثور، بنهايته المشعرة، والملطخة ببقع الدم الداكنة يستلقي على أكوام الكتب.

كان طويلاً بشكل استثنائي، إنه ذلك الذيل الذي أسقط نظارة (بينوكلار) دون شك.

الفصل الثالث

صورة من عهد إعادة تأهلينا ستظل، رغم تقادم السنين، محفورة في ذاكرتي بجلاء استثنائي: تحت النظرة اللامكترثة لغراب بمنقار أحمر، كان (لو)، وعلى ظهره سلة يتقدم زاحفاً على أربعة على ممر عرضه حوالي ثلاثين سنتمتراً، محاطاً من كل ناحية بهاوية عميقة. في سلته العادية والمتسخة والمتينة والمصنوعة من الخيزران يخبئ كتاب (بلزاك)، الأب جوريو والذي كان عنوانه بالصينية العجوز جو، كان ذاهباً لقراءته للخياطة الصغيرة التي وإن كانت جبلية جميلة إلا أنها لم تكن مثقفة بعد.

خلال الأيام التالية لعملية السطو الناجحة التي قمنا بها، وقعنا تحت فتنة وسيطرة وغلبة لغز العالم الخارجي وبوجه خاص ما يتعلق بالمرأة والحب والجنس والذي ما انفك الكتّاب الغربيون يكشفوه لنا يوماً بعد يوم وصفحة تلو الأخرى وكتاباً بعد آخر. كانت الفرصة سانحة للقراءة. ليس فقط لأن (بينوكلار) كان قد غادر دون أن يتجرأ على فضحنا. لكن لأن مأمور قريتنا، ولحسن الحظ، كان قد ذهب إلى مدينة يونج جينج لحضور مؤتمر شيوعيّ المقاطعة. مستفيدين من غياب السلطة السياسية ومن الفوضى التي عمت مؤقتاً القرية، رفضنا الذهاب إلى العمل في الحقول وهو الأمر الذي لم يكن يعني كلية المزارعين السابقين للأفيون والمنحدرين إلى حراس لأرواحنا. وهكذا أمضيت نهاراتي مع الروايات الغربية مغلقاً بابي من الداخل بالمزلاج بإحكام أكثر من أي وقت مضى. تركت روايات (بلزاك) جانباً باعتبارها الشغف الخاص بـ(لو) وأغرمت بالتناوب وبطيش وجدية سنواتي التسع عشرة، بفلوبير، بجوجول، بملفيل وحتى برومان رولاند.

وعلى ذكر هذا الأخير، فإن حقيبة (بينوكلار) لم تكن تحتوي إلى على الجزء الأول من عمله – المكون من أربعة أجزاء – جون كريستوف. وبما أن العمل كان يتعلق بحياة شخصية موسيقية وبما أنني كنت أنا نفسي قادراً على العزف على الكمنجة قطع موسيقية على غرار موزارت يفكر بماوتسي تونج فقد كنت متلهفاً لتصفحه – كان الأمر أشبه بمغازلة بلا نتيجة – لا سيما وأن مترجمه هو السيد (فو لوي)، مترجم (بلزاك). لكن ما إن فتحته حتى لم أتركه بعد ذلك. كانت كتبي المفضلة بالطبع هي المجموعات القصصية التي تتضمن حكايات تقوم على تسلسل الأحداث وتتخللها أفكار مبهرجة وأحياناً مسلية أو تلك التي تثير من الدهشة ما يقطع الأنفاس. حكايات ترافق المرء طوال حياته. ما يتعلق بالروايات، فباستثناء بعضها، فقد بقيت محتفظاً إزاءها على الأرجح. لكن جون كريستوف بفرديته العنيدة، الخالية من الخسة كان بالنسبة لي بمثابة رؤيا خلاص. بدونه لم يكن ليتسنى لي فهم بهاء ورحابة النزعة الفردية. إلى حين حدوث هذه المقابلة المسروقة فإن رأسي البائس، المؤهل والمعاد تأهيله كان يجهل وبكل بساطة أن بوسع المرء أن يصارع بمفرده العالم أجمع. وهكذا تحولت المغازلة إلى شغف كبير. حتى أن الإطناب الزائد عن الحد الذي سلم الكاتب نفسه إليه لم يكن يبدو لي مضراً بجمال العمل. لقد ابتلعت فعلاً داخل المجرى الذي ظل يتدفق خلال مئات الصفحات. فما أن تنتهوا من قراءته دفعة واحدة فلا حياتكم البائسة ولا العالم الصغير سيبقيان كما كانا من قبل.

لقد بلغ إعجابي بجون كريستوف حداً أردت معه وللمرة الأولى في حياتي أن يكون هذا العمل لي وحدي لا ملكية مشتركة مع (لو). على صفحة الغلاف الداخلية، البيضاء كتبت إهداءً يقول لقد كان هذا الكتاب

هدية بمناسبة عيد ميلادي العشرين. طلبت من (لو) أن يذيلـه بتوقيعـه، أحس بأنني بذلك أطري عليه، لا سيما وأن المناسبة كانت نادرة بحيث تستحق أن تكون تاريخية. كتب اسمه بخط ريشة متفرد، موصول، كثيف ونزق رابطاً الثلاثة حروف المكونة لاسمه في كل واحد ينحني برشاقة ليشغل نصف الصفحة تقريباً. من ناحيتي كتبت له إهداءات على ثلاث روايات لـ(بلزاك) الأب جوريو، يوجين جرونديه وأورسول ميريوت كهدية بمناسبة العام الجديد الذي لم يتبق له سوى أشهر قليلة.

تحت الإهداء رسمت ثلاثة أشكال يمثل كل منها ثلاثة حروف صينية مؤلفة لاسمي. في الأول رسمت حصاناً يجري بسرعة، يصهل وعرفه الزاهي يتخافق في الريح. الثاني كان عبارة عن سيف طويل بمقبض من العظم ومرصع بالجواهر. بينما كان الثالث يمثل جرس قطيع، حوله تتناثر عدة خطوط على شكل أشعة بحيث يبدو كما لو أنه يهتز ويرن طلباً للمساعدة. كنت راضياً جداً عن هذا التوقيع إلى حد أوشكت أن أرش عليه بضع قطرات من دمي لكي أضفي عليه بعض القداسة.

حوالي منتصف الشهر، داهمت الجبل عاصفة شديدة استمرت طوال الليل. هطل المطر على هيئة أمزان غليظة، بالرغم من ذلك ومع بزوغ فجر اليوم التالي، غادر (لو)، المخلص لطموحه في خلق فتاة جميلة ومثقفة، مصطحباً معه رواية الأب جوريو، في سلة الخيزران. مثل فارس متوحد وبلا حصان توارى على الطريق مغلفاً بضباب صباحي، متجهاً إلى قرية الخياطة الصغيرة.

من باب الحرص على عدم اقتراف أي محرمات فرضتها السلطة السياسية عاد مساءً. دلف إلى المنزل برصانة أضفت عليه مظهراً حكيماً. تلك الليلة حكى لي كيف تسلق في ذهابه وإيابه ممراً ضيقاً

وخطراً تكوّن بفعل انهيار صخري رافق عاصفة الليلة السابقة دون أن يجد حرجاً في الاعتراف:

- لو كان الأمر يتعلق بك أو بالخياطة الصغيرة، لكنتما ستتجرآن على الجري عليه بكل تأكيد. أما بالنسبة لي فحتى وأنا أزحف عليه على أربعة فقد ارتعشت من الرأس حتى أخمص القدمين.

- هل هو طويل جداً؟

- بطول أربعين متراً على الأقل.

بالنسبة لي كان هذا بمثابة لغز: أبداً لم يكن لدى (لو) أي مشكلة مع أي شيء باستثناء الأماكن المرتفعة. كان المثقف الذي لم يتسلق في حياته شجرة واحدة. مازلت أتذكر ما بعد ظهيرة بعيدة، قبل خمس أو ست سنوات من ذلك الوقت. كنا بصدد تسلق السلم الحديدي الصدئ لقصر الماء. ما أن بدأنا الصعود حتى أخذ (لو) يكشط راحتي يديه على الجنزار حتى سالت منهما قطرات من الدم. عند وصولنا إلى ارتفاع خمسين متراً قال لي: (في كل خطوة أحس أن درجات السلم ستتخلى عن قدمي)، كانت يده المخدوشة تؤلمه وهو ما كان يغذي ضيقه. انتهى به الأمر إلى الإحجام ليتركني أتابع الصعود وحدي: من قمة البرج أرسلت ناحيته بصقة هازئة تلاشت في الهواء بمجرد خروجها من فمي. مرت سنوات بيد أن خوفه من الأماكن المرتفعة لم يزل. أتذكر أننا كنا نقوم أحياناً بنزهات، في الجبال بصحبة الخياطة الصغيرة، عندئذ كنا، الخياطة الصغيرة وأنا، نركض على المنحدرات دون أي تردد وكلما عبرنا ممراً جبلياً توجب علينا أن نتوقف للحظة طويلة بانتظار (لو) الذي لم يكن يتجرأ أبداً على السير على قدميه وإنما حابياً على أربعة.

ذات يوم ومن باب تغيير الجو رافقته في حجة الجمال التي يقوم بها

إلى قرية الخياطة الصغيرة. حين وصلنا إلى الممر الخطر الذي حدثني عنه هبت نسمة صباحية تحولت إلى ريح قوية رددت صدى صفيرها جنبات الجبال. منذ أن ألقيت نظرتي الأولى على الممر، أدركت إلى أي مدى، كان (لو) قد غالب مخاوفه باتخاذه طريقاً له. أنا نفسي كنت أرتعش خوفاً وأنا أضع أقدامي عليه.

انهارت صخرة تحت قدمي اليسرى في نفس الوقت الذي أسقطت فيه قدمي اليمنى بضع كتل من الصخور التي اختفت في فراغ الهاوية. لزمني وقت طويل قبل أن أسمع ضجيج سقوطها الذي تردد على هيئة صدى بعيد تعالى من الهاوية اليمنى ثم اليسرى. لم يكن يتوجب علي النظر إلى الأسفل أبداً لا سيما وأنني كنت أقف على هذا الممر الذي يبلغ عرضه حوالي ثلاثين سنتمتراً، متمايلاً بين هاويتين. بيد أنني لم أقوَ على مقاومة الإغراء. نظرت أولاً إلى اليمين. رأيت تحت أقدامي حاجزاً صخرياً أجرد يمتد رأسياً بعمق يبعث على الدوار. وفي الأسفل كانت هنالك أشجار ذات أوراق لم تعد فاتحة الخضرة بل بلون رمادي يميل إلى البياض الضبابي. لكن ما أن حولت نظراتي عنها باتجاه الهاوية اليسرى حتى شرعت أذناي بالطنين على حين غرة: كانت الصخور متسلخة بعنف إلى درجة تسترعي الانتباه.

لحسن الحظ أن طول هذا الممر الخطر كان ثلاثين متراً تقريباً. عند طرفه الآخر كان هنالك غراب بمنقار أحمر يجثم على صخرة ورأسه غائر في عنقه على نحو يثير الفزع.

- هل تريد أن أحمل السلة؟

سألت بلهجة مداهنة (لو) الذي كان لا يزال واقفاً عند بداية الممر.

- نعم، خذ.

بمجرد أن وضعت السلة على ظهري حتى صفرت عاصفة داهمة من الريح مما جعل طنين آذاني يزداد حدة. حركت رأسي فمنحته هذه الحركة دواراً خفيفاً أمكنني تحمله تقريباً. تقدمت بضع خطوات ثم أدرت رأسي فرأيت (لو) لا يزال واقفاً في نفس المكان، وطيفه يترنح أمام عينيَّ مثل شجرة في الريح.

ثبت نظراتي أمامي مباشرة وتقدمت مثل بهلوان متراً بعد متر. لكن ما أن بلغت منتصف الممر حتى رأيت صخور الجبل المقابل حيث يقف الغراب ذو المنقار الأحمر يتمايل بقسوة ناحية اليمين ثم اليسار كما لو بتأثير هزة أرضية.

بحركة لا إرادية جلست في الحال، لم يتوقف دواري إلاّ حينما لمست الأرض. كان العرق يسيل في جداول على ظهري وصدري وجبيني. مسحت صدغي بإحدى يدي، كم كان بارداً ذلك العرق!

أدرت رأسي باتجاه (لو). رأيته يصرخ ناحيتي ببضعة أشياء، بيد أن أذنيَّ كانتا مسدودتين تقريباً بحيث أنني لم أسمع صوته إلاّ على هيئة طنين إضافي. بعينيّ المرفوعتين بما يكفي لتجنب النظر إلى الأسفل رأيت في النور المشرق للشمس طيف الغراب الأسود يزوبع فوق رأسي وأجنحته ترفرف بطيئاً.

(ماذا حدث لك؟) سألت نفسي فيما رحت أتشبث بمنتصف الممر. فكرت كذلك فيما سيقوله العجوز جون كريستوف لو رآني أتراجع القهقرى. لا بد أنه كان بعصا المايسترو التي بيده سيوضح لي الاتجاه الذي يتوجب عليّ أن أتبعه، تخيلت أنه ما كان ليخجل أن يتراجع أمام الموت. ناهيك عن أنه ما كان عليّ أن أموت قبل أن أعرف الحب، الجنس والمعركة الفردية ضد العالم أجمع الشبيهة بتلك التي خاضها!

استحوذت عليّ رغبة عارمة في الحياة. رحت أتراجع على ركبتيّ نحو بداية الممر ويداي تزحفان إلى جوارهما. بدون ذلك كان سيختل توازني وسأتحطم في أعماق الهاوية. فجأة فكرت بـ(لو). لابد أنه عانى من قبل خوفاً مماثلاً قبل أن يتسنى له بلوغ الجهة الأخرى.

كنت كلما ازددت اقتراباً من (لو)، يزداد صوته وضوحاً. لاحظت أن وجهه كان شاحباً بإفراط كما لو أنه تعرض لخوف أكبر من خوفي. نادى بأن أجلس على الأرض وأتقدم مفرشخ الساقين. تبعت نصيحته وبالفعل سمح لي هذا الوضع الجديد بالرغم من مهانته بأن أتراجع بكل أمان. حين وصلت إلى بداية الممر وقفت وناولته السلة.

- هل كنت تعمل هكذا كل يوم؟ سألته.

- لا. في البداية فقط.

- هل يتواجد هنا دائماً؟

- من؟.

- هو.

وأشرت بإصبعي ناحية الغراب ذي المنقار الأحمر الذي كان قد حط عند منتصف الممر حيث كنت أقف قبل قليل.

- نعم يتواجد هنا كل صباح. يبدو أنه على موعد معي، قال (لو). لكنني لا أراه أبداً حين أعود في المساء.

وبما أنني كنت أرفض أن أجعل نفسي مسخرة من جديد عند هذه الدرجة من السير على حبل البهلوان، فقد ألقى بالسلة على ظهره وانحنى بهدوء إلى أن لامست يداه الأرض. سار بالتناوب على يديه وبحذر وساقاه تتبعانه بانسجام. في كل خطوة كانت رجلاه تلامسان تقريباً يديه. بعد بضعة أمتار توقف كما لو ليلقي إليّ بتحية لئيمة. هز عجيزته

بحركة قرد حقيقي يتسلق على غصن شجرة. طار الغـراب ذو المنقـار الأحمر، حملته أجنحته العريضة المرفرفة ببطء في حركة دائريـة فـي الهواء.

لاحقت (لو) بنظرة إعجاب حتى طرف الممر الذي أطلقت عليه اسـم (العُرف) حيث توارى هناك خلف كتلة من الصخور. فجأة تساءلت، لكن ليس دون فهم، إلى أين ستقوده رواية (بلزاك) مع الخياطـة الصـغيرة وعلى أي وجه ستنتهي. خيم صمت مطبق على الجبل عقـب مغـادرة الطائر الأسود.

في الليلة التالية استيقظت مفزوعاً من النوم. احتجت لعدة دقائق كـي أعود إلى الواقع الراسخ والمألوف. تناهت إلى مسامعي الأنفاس المنتظمة لـ(لو) آتية من السرير المقابل تحسست حولي فوقعت أصـابعي علـى سيجارة، أشعلتها ورحت أدخن في الظلام.. وشيئاً فشيئاً أعاد إليّ هدوئي حضور الخنزيرة التي كانت تلطم خطمها في جـدار الحظيـرة، أسـفل منزلنا ذي الأوتاد. مرت في مخيلتي تفاصيل الحلم الذي أخافني مثل فيلم مُسرع: كنت أشاهد (لو) من بعيد وهو يسير برفقة فتـاة علـى الممـر الضيق الذي يبعث على الدوار والمحاط من كل ناحية بهاوية. في البـدء تبين أن الفتاة السائرة في المقدمة كانت ابنة حارس المستشفى الذي كـان يعمل فيه آباؤنا. كانت فتاة متواضعة وعادية تدرس معنـا فـي نفـس الفصل، ناهيك عن أنني كنت قد نسيت وجودها منذ سنوات. وفيما كنـت أفتش عن مبرر ظهورها غير المتوقع إلى جانب (لو) في هـذا الجبـل تحولت إلى الخياطة الصغيرة، هذه الفتاة الحيوية والمسـلية والمصـبوبة داخل فانيلة بيضاء وبنطال أسود. لم تكن تسير الهوينا على الممـر بـل

تركض مثل عداءة فيما عشيقها الشاب (لو) يتبعها بطيئاً على أربع. لا أحد منهما كان يحمل سلة على الظهر. لم تكن لدى الخياطة الصغيرة جديلتها المعتادة الكثيفة والطويلة بل شعر يرفرف على كتفيها أثناء ركضها مثل جناح. عبثاً فتشت بنظراتي عن الغراب ذي المنقار الأحمر. وحين وقعت عيناي مجدداً على صديقيّ كانت الخياطة الصغيرة قد اختفت ولم يعد هنالك سوى (لو). لم يكن جالساً في الوضع المفرشخ الذي اعتدت أن أراه فيه وإنما يضع ركبتيه على أرض الممر ساكباً نظراته في الهاوية اليمنى. بدا كما لو أنه يصرخ بشيء ما وهو في انحناءته تلك. بيد أنني لم أسمع مما يقول شيئاً. هرولتُ باتجاهه دون أن أعرف من أين جاءتني شجاعة الركض. عند اقترابي منه أدركت أن الخياطة الصغيرة قد سقطت في المنحدر الرأسي الذي نزلناه متزحلقين... وجدنا جسدها في قعر الهاوية، متكوراً على إحدى الصخور. كان رأسها مرتداً نحو بطنها وقد تحول الدم المتخثر داخل صدعين كبيرين على مؤخرتها إلى قشور جافة. كان أحد الصدعين يمتد إلى جبينها الرائع التكوين. فيما كان فمها الفاغر يكشف عن لثة وردية وأسنان منتظمة. كان يبدو كما لو أنها أرادت أن تصرخ لكن الخَرس أعاقها، لذا فاحت بدلاً من ذلك رائحة الدم. انحنى (لو) ناحيتها ورفعها على ذراعيه فانبجس الدم في خيوط موصولة من فمها ومنخرها الأيسر وإحدى أُذنيها، سال على أذرع (لو) وتساقط في قطرات على الأرض.

عندما رويت هذا الكابوس لـ(لو) استمع إليه دون أن يبدي تأثراً:

-- انس ذلك -- قال لي -- أنا أيضاً يعبرني أحياناً هذا النوع من الأحلام.

فيما كان يفتش عن سترته وسلته الخيزرانية سألته:

- ألن تنصح حبيبتك بعدم المرور على هذا الممر؟

- أنت مجنون! هي أيضاً تريد أن تأتي إلينا بين وقت وآخر.

- لبعض الوقت فقط. إلى أن يتم إصلاح الممر التالف هذا.

- حاضر، سأخبرها.

كان يبدو عليه الاستعجال حتى أنني أوشكت أن أحس بالغيرة لكونه سيقابل الغراب المفزع بمنقاره الأحمر:

- لا تحكِ لها حلمي.

- لا تقلق.

عودة مأمور القرية وضعت مؤقتاً نهاية لحجة الجمال التي كان يقوم بها صديقي (لو) يومياً وبحماس منقطع النظير.

لم يكن هنالك ما يدل على أن مؤتمر الحزب وشهر من الحياة المدنية قد منحا مأمورنا أي مسرة. كان يبدو كما لو أنه في حداد، الوجنة متورمة والوجه يشوهه الغضب من طبيب حزبي يعمل في مستشفى المقاطعة: (ابن العاهرة هذا. الطبيب المغفل ذو "الأقدام الحافية" انتزع ضرسي السليم وترك العليل الذي إلى جانبه) كان هائجاً نظراً لأن النزيف الناجم عن خلع سنه السليمة كان يعيقه عن الكلام وحتى عن التلفظ بهذه الشتائم التي كانت تخرج من فمه على هيئة تمتمات تُسمع بالكاد فيما يعرض على هؤلاء المهتمين بألمه مخلفات العملية: بقايا سن سوداء، طويلة وحادة، بجذر مصفر يحتفظ بها بعناية ملفوفة في طرف ساتان حريري أحمر اشتراه من أحد الأسواق الدورية التي تعقد في يونج جينج.

وبما أنه كان بوسع أدنى تمرد أن يثير غضبه فقد أُجبرنا، (لو) وأنا، على الذهاب إلى العمل في حقول الذرة والأرز. لقد توقفنا حتى عن تشغيل منبهنا السحري الصغير.

ذات مساء وفيما كنا في صالة الطعام نعد وجبة العشاء نزل المأمور الذي كان لا يزال يعاني من آلام الأسنان ضيفاً علينا. أخرج من نفس مربع الساتان الأحمر الذي كان يلف فيه سِنه عند وصوله قضيباً معدنياً صغيراً وأوضح لنا:

– إنها قطعة حقيقية من القصدير، اشتريتها من بائع متجول. إذا ما وضعت لمدة ربع ساعة على النار فإنها تنصهر.

لم يصدر عنا أي رد فعل. داهمتنا، فقط، الرغبة في الضحك ونحن نحملق في وجهه المتورم حتى أُذنيه كما لو كان شخصية في فيلم فكاهي.

قال بلهجة صادقة من أي وقت مضى:

- عزيزي (لو) لقد شاهدت حتماً والدك يقوم بذلك آلاف المرات: عندما تنصهر قطعة القصدير فإن وضع جزء منها داخل السن المنخورة سيكون كافياً على ما يبدو لقتل الديدان التي في الداخل. لا بد أنك تعرف ذلك أكثر مني. إنك ابن طبيب أسنان شهير لذا سأعتمد عليك في إصلاح سنّي.

- تريد أن أضع بعض القصدير في سنك؟ أتعني ما تقول!؟

- نعم. وإذا توقف الألم سأمنحك شهراً من الراحة.

لزم (لو) جهداً كبيراً لمقاومة هذا العرض المغري. قال بنبرة محذرة:

- لن ينفع القصدير، ثم إن أبي كان يمتلك آلاتاً حديثة. فهو يثقب السن أولاً بواسطة مثقاب كهربائي قبل أن يضع أي شيء في الداخل.

نهض المأمور وقد بدا عليه التردد. دمدم وهو يغادر:

- صحيح، رأيت ذلك في مستشفى المقاطعة. المغفل الذي انتزع سني السليمة كان لديه مخيط يدور مصدراً ضوضاء محرك كهربائي.

بعد بضعة أيام وصل الخياط - والد صديقتنا - إلى القرية مع ماكينة خياطته التي تراءت من بعيد وهي تتلامع تحت أنوار الشمس الصباحية على الجذع العاري للحمال. بوصوله أمكننا تفادي ألم المأمور.

لم نكن نعرف بعد إذا ما كان الخياط يمنح نفسه صفات رجل مشغول لأن وقته يزخر بالعمل حقاً أم أنه وبكل بساطة كان غير قادر على تنظيم وقته بدقة وذلك لأنه رفض عدة مرات مقابلته الطقوسية مع فلاحي

قريتنا الذي كان ظهور هذا الطيف الصغير والناحل مع ماكينة خياطته قبل بضعة أسابيع من حلول العام الجديد يمثل بالنسبة لهم سعادة حقيقية.

كعادته، هذه المرة أيضاً، كان يجوب القرى بدون ابنته. حين قابلناه قبل بضعة أسابيع على طريق ضيق وزلق كان يجلس على كرسي محمول وذلك بسبب المطر والوحل. أما في هذا اليوم فقد وصل على الأقدام طافحاً بحيوية صبيانية لم يستنفدها سنه الكبير بعد. كان يعتمر قبعة بلون أخضر شاحب. كانت دون شك تلك التي استعرتها عند زيارتنا للطحان العجوز في منحدر الألف متر. ويرتدي سترة زرقاء واسعة، مفتوحة برحابة على قميص كتاني خال من أزرار القطن التقليدية وحزاماً أسود لامعاً من الجلد الطبيعي.

خرجت القرية كلها لاستقباله. وقفت في مقدمة الحشد أُصغي لصرخات الأطفال تتردد ورائي مختلطة بضحكات النساء اللاتي خرجن بقماشهن الجاهز منذ شهور وفرقعات الألعاب النارية ودمدمة الخنازير، كل هذا خلق جواً شبيهاً بجو عيد. أخذ أرباب العائلات يتنافسون فيما بينهم وكل منهم يريده أن يمكث في منزله على أمل أن تكون عائلته هي الزبون الأول. لكن وأمام دهشة الجميع صرح العجوز:

- سأنزل عند هذين الشابين، صديقيّ ابنتي.

تساءلنا عن المبررات الكامنة وراء هذا الاختيار. حسب تحليلنا إنه كان بذلك يسعى لإقامة صلة مباشرة مع صهره المحتمل. لكن أياً كان المبرر فقد أتاح لنا اختياره هذا فرصة للاطلاع على خصوصية الحياة الأنثوية، هذا الجانب من طبيعة النساء الذي ظل حتى ذلك الوقت مجهولاً بالنسبة لنا نحن ساكني هذا المنزل ذي الأوتاد والذي تحول إلى معمل خياطة. كان الأمر أشبه بمهرجان غير منظم تقريباً: نساء من كل

الأعمار، جميلات وقبيحات، ثريات وفقيرات أخذن في التزاحم بأقمشتهن، بالدانتيل، بالأشرطة، بالأزرار وبالخيوط وبتصوراتهن حول الملابس التي حلمن بها.

كن ما أن يحين موعد جلسات القياس حتى يشرعن في الهياج ونفاد الصبر وتنبجس فيهن الرغبة الجسدية وهو ما كان يصيبنا، (لو) وأنا، بالدهشة. لم يكن بوسع أي نظام سياسي أو شرط اقتصادي أن يحرمهن هذه الرغبة القديمة قدم العالم وقدم غريزة الأمومة: أن يبدين مرتديات على نحو جميل.

كان ما أن يحل المساء حتى يكون البيض، اللحم، الخضروات، الفواكه وكل ما يجلبه القرويون للخياط العجوز قد تكدس في زاوية صالة الطعام مثل قرابين دينية. كان الرجال يقبلون فرادى وجماعات لينحشروا في جموع النساء. كان بالإمكان رؤية الخجولين منهم جلوساً على الأرض، حول النار، بأقدام عارية ورؤوس منكسة منهمكين في قص أظافرهم التي لها خشونة الأحجار بشفرات مناجلهم القاطعة. فيما الآخرون وبالذات الأكثر خبرة وإقداماً يتبادلون المزاح دون خجل مرسلين باتجاه النساء إيحاءات أقل أو أكثر فحشاً. لم يكن الخياط العجوز في وضع يسمح له باستخدام سلطته لطردهم خارجاً. لا سيما وأن السخط والإنهاك غالباً ما يكونا في هذه الأثناء قد استحوذا عليه.

في الليلة الأولى لمكوثه عندنا وبعد وجبة العشاء السريعة التي تناولناها ثلاثتنا فقط في جو من الهدوء والألفة، ضحكنا ونحن نتذكر مقابلتنا الأولى على الطريق، اقترحت على ضيفنا أن أعزف قطعة على الكمنجة قبل خلودنا إلى النوم. بيد أنه رفض. بدلاً من ذلك طلب منا بصوت متثائب وجفونه نصف مسدلة:

- من الأفضل أن تحكوا لي حكاية، أخبرتني ابنتي إنكما حكواتيان رائعان، لهذا نزلت في ضيافتكما.

بهدف إزالة التعب البادي على خياط الجبل أو بدافع التواضع أمام صهره المستقبلي تخداني (لو)، قال يستحثني:

- هيا. احكي لنا حكاية لم نسمع بها من قبل.

قبلت متردداً أن ألعب دور حكواتي منتصف الليل. قبل أن أبدأ ومن باب الحيطة دعوت مستمعيَّ إلى أن يغسلا أقدامهما بالماء الساخن ومن ثم التمدد في مرقديهما لكي يتحاشيا أن يداهمهما النوم، أثناء سرد القصة، وهم جلوس. أخرجنا بطانيتين نظيفتين وسميكتين وجعلنا ضيفنا يتمدد بارتياح في سرير (لو) فيما تمددنا، (لو) وأنا، في سريري. وما أن أصبح كل شيء على أهبة الاستعداد وفيما كانت تثاؤبات الخياط تتعالى بمزيد من الإرهاق والضوضاء، أطفأت مصباح الكيروسين لمبررات اقتصادية، وضعت رأسي على المخدة، وأغلقت عيوني منتظراً أن تخرج من فمي العبارة الأولى من القصة.

لو لم أكن قد تذوقت الفاكهة المحرمة - الحقيبة السرية لـ(بينوكلار) - لكنت اخترت بكل تأكيد فيلماً صينياً أو كورياً شمالياً وحتى ألبانياً لكي أحكيه. لكن وقد حدث ذلك فإن هذه الأفلام ذات النزعة الواقعية الاشتراكية الافترائية التي كنت قد تشبعت بها بحكم تكويني الثقافي بدت لي شديدة البعد عن الرغبات الإنسانية، عن المعاناة الحقيقية وبوجه خاص عن الحياة. ناهيك عن أنني لم أكن أرى جدوى في أن أجهد نفسي في حكايتها في ساعة متأخرة كهذه. فجأة خطرت في بالي رواية كنت قد انتهيت من قراءتها. كنت على يقين من أن (لو) لم يكن قد قرأها بعد بفعل شغفه المفرط بـ(بلزاك).

نهضت وجلست أسفل السرير مهيئاً نفسي لنطق العبارة الأولى الأكثر صعوبة والأكثر رقة والتي أردتها أن تكون بسيطة.

- نحن الآن في مرسيليا وفي العام (١٨١٥).

نطقتُ بهذه العبارة وصمتُ مصغياً لصوتي يتردد في سواد حبر الحجرة.

- أين تقع مرسيليا هذه؟

قاطعني الخياط بصوت وسنان.

- في الطرف الآخر من العالم. إنها ميناء كبير في فرنسا.

- ولماذا تود الذهاب بنا بعيداً جداً.

- أردت أن أحكي لكم قصة بحار فرنسي. لكن إذا كان ذلك لا يثير اهتمامكم فلننام في الحال، إلى الغد!

اقترب (لو) مني، في الظلمة وهمس برقة:

- أحسنت يا عزيزي!

ما أن مضت دقيقة أو دقيقتان حتى سمعت صوت الخياط مجدداً:

- ما اسم بحارك؟

- في البدء كان يسمى (ادموند دونته) ثم أصبح الكونت مونت كريستو.

- كريستو؟

- إنه الاسم الآخر للمسيح والذي يعني المنقذ أو المخلص.

وبهذا كنت قد بدأت في سرد قصة ألكساندر دوماس. لحسن الحظ أن (لو) كان يقاطعني بين وقت وآخر طارحاً بصوت خافت تعليقات بسيطة وذكية تنم عن انجذابه التدريجي إلى القصة وهو ما سمح لي بالتركيز والتحلل من الاضطراب الذي أثاره فيَّ الخياط الذي كان دون شك قد

أصيب بالضجر من جراء كل هذه الأسماء الفرنسية والأمكنة القصية ناهيك عن نهار من العمل الشاق. فبعد أن بدأت القصة لم ينطق بكلمة واحدة كما لو أنه كان غارقاً في نوم عميق.

من ناحيتي نسيت ضيفنا، حكيت وحكيت وأعدت الحكي... كانت عباراتي تغدو بتقدم الحكاية أكثر تحديداً، وتماسكاً. تسنى لي لقاء جهود معينة الاحتفاظ بالنبرة البسيطة لعبارتي الأولى. لم يكن الأمر هيناً. لقد كنت حتى مسروراً ومندهشاً أن أرى بكل وضوح مسار القصة، موضوع الثأر، العقد التي أعدها الراوي تظهر وتعيش متعة جذبها بواسطة يد قوية، ماهرة وغالباً متحمسة، كان الأمر أشبه ما يكون بمشاهد شجرة كبيرة مقتلعة من جذورها تبسط على الأرض نبل جذعها، رحابة أغصانها وعري جذورها الكثيفة.

لم أكن أعرف كم من الوقت مر. ساعة؟ اثنتان؟ أو أكثر؟ بيد أنه عندما وضع البطل – البحار الفرنسي – في السجن حيث كان مقدراً له أن يتعفن خلال عشرين عام. اضطرني التعب غير المفرط إلي التوقف.

- أصبحت الآن تحكي أفضل مني لا بد أن تصبح كاتباً.

همس لو.

منتشياً بالمديح الذي خصني به قاص فوق موهوب استسلمت بسرعة لنصف إغفاءة. بيد أنني سمعت فجأة صوت الخياط العجوز يتمتم في الظلمة:

- لماذا توقفت؟
- هكذا إذن! (صرخت). ألم تنم بعد؟
- أبداً. استمعت إليك. قصتك أعجبتني.
- أشعر بالنوم الآن.

- من فضلك، حاول أن تستمر قليلاً.

ألح الخياط العجوز.

- قليلاً فقط. هل تتذكر أين توقفت؟

- عند دخوله سجن القصر. في وسط البحر...

دهشت للدقة التي حدد بها مستمعي نقطة التوقف رغم كبر سنه. استأنفت سرد حكاية بحارنا الفرنسي... متوقفاً كل نصف ساعة وفي لحظة حاسمة غالباً، ليس بفعل التعب وإنما الغنج البريء الذي نجده عادة لدى القاص. كنت – مع كل بداية – أتضرع لنفسي ثم أشرع من جديد. عندما كشف القس السجين سر الكنز الهائل المطمور في جزيرة مونت كريستو لادموند وساعده على الهرب كانت أنوار الفجر الأولى قد اخترقت غرفتنا عبر الكوى، مصحوبة بزقزقة القبرات واليمام وطيور الشرشور.

في اليوم التالي كان إنهاك السهر بادياً علينا جميعاً. بيد أن الخياط وجد نفسه مضطراً لأن يقدم مبلغاً صغيراً من المال إلى القرية كي يسمح له المأمور بمواصلة المكوث عندنا.

- استرح جيداً وهيئ لي لهذه الليلة موعداً مع البحار الفرنسي.

قال لي العجوز غامزاً بإحدى عينيه.

كانت هذه القصة هي بكل تأكيد أطول ما حكيت في حياتي: لقد استمرت تسع ليال بكاملها. لم أفهم أبداً من أين كان الخياط العجوز يستمد مقاومته البدنية. إذ كان يعمل طوال النهار التالي. تحت تأثير الراوي الفرنسي بدأت تظهر في ملابس القرويين الجديدة على نحو مباشر وغير مباشر وبشكل لا يمكن تفاديه بضع غرائب وبوجه خاص بعض ملامح أزياء البحارة إلى درجة أنه لو قُدر لدوماس نفسه أن يرى

النساء الجبليات مسبوكات داخل أنواع من الستر ذات الأكتاف المتهدلة والياقات الكبيرة المربعة من الخلف والمدببة من الأمام وهي تتخافق في الريح لكان أول من أبدى دهشته. كانت تفوح من أشكالها رائحة البحر المتوسط.

كانت بنطلونات البحارة الزرقاء التي وصفها دوماس ونقلها إلى حيز الوجود تابعة الخياط العجوز بأرجلها العريضة، المتخافقة التي تبدو كما لو أن الروائح العطرة لشاطئ أزور تفوح منها مع كل خفقة، قد سلبت ألباب الفتيات. لقد رسم لنا مرساة ذات خمسة رؤوس باعتبارها السمة البارزة والمطلوبة في الموضة النسائية التي سادت جبل الفينيق خلال تلك السنوات. كانت بعض النسوة قد نجحن في تطريزها بعناية وبخيوط ذهبية حتى على بعض الأزرار الصغيرة. مع ذلك أبقينا بضعة أسرار كان قد وصفها دوماس بدقة مثل زهرة الزنبق المطرزة على قمصان وصدريات وثوب مرسيدس لتكون من نصيب ابنة الخياط.

في نهاية الليلة الثالثة كانت هنالك كارثة على وشك الوقوع. كان الوقت حوالي الخامسة صباحاً. وقد وصلنا إلى قلب المكيدة التي تعد من وجهة نظري أفضل جزء في الرواية: عند رجوعه إلى باريس، نجح الكونت بفضل حساباته الدقيقة في معاقبة خصومه الثلاثة القدماء الذي كان يريد الانتقام منهم. كان قد وضع بيادقه الواحد تلو الآخر، حسب استراتيجية لا يمكن تفاديها، مكيدة شيطانية. عما قريب كان المدعي العام سيحاط بالهلاك. لأن الفخ الذي أعد بنفس طويل سيطبق عليه لولا أن باب غرفتنا – وفي اللحظة التي وقع فيها كونتنا في غرام ابنة المدعي العام – كان قد فتح فجأة مصدراً صريراً مرعباً. ظهر على العتبة الظل الداكن لرجل. طرد رجل الظل، بمصباحه اليدوي المضاء،

الكونت الفرنسي وأعادنا إلى الواقع.

كان ذلك مأمور القرية مرتدياً طاقية وقد تغير وجهه المتورم حتى أذنيه على نحو شنيع كما أن الظلال القاتمة التي كان يلقيها عليه نور المصباح اليدوي زادته تشوهاً. كنا غارقين في قصة دوماس حتى أننا لم نسمع ضوضاء خطواته عند اقترابه من المنزل.

– أوه، أي ريح طيبة قادتك إلينا؟ صرخ الخياط، كنت أسأل نفسي إن كنت سأحظى برؤيتك هذه الليلة. قيل لي أنك تعاني من الألم الذي سببه لك طبيب الأسنان.

بيد أن المأمور لم ينظر إليه، كان يبدو كما لو أنه لم يكن هنا. صوب باتجاهي نور المصباح.

– ماذا هنالك؟ سألته.

– اتبعني؟ سأحدثك في مكتب الأمن العام للبلدة.

لم يكن بوسعه أن يزمجر بسبب آلام أسنانه، بيد أن غمغمته التي تسمع بالكاد هزتني حتى الأعماق. إذ أن اسم هذا المكتب ظل مرتبطاً في الذهن لوقت طويل بالعقاب الجسدي والجهنمي لأعداء الشعب.

– لماذا؟ سألته ممسكاً بيد مرتعشة المصباح اليدوي.

– أنت تحكي قذارات رجعية. من حسن حظ قريتنا أنني لا أنام مطلقاً. إنني أسهر طوال الليل. لن أخفي عنك الحقيقة: إنني واقف هنا منذ منتصف الليل وسمعتها بالكامل قصتك الرجعية عن هذا الكونت.

– لا تأخذ بخاطرك أيها المأمور – قال (لو) – فهذا الكونت ليس صينياً.

– لا أكترث. ذات يوم ستنتصر ثورتنا في العالم أجمع! ومجرد كونت أياً كانت جنسيته ليس بوسعه أن يكون شيئاً آخر سوى رجعي.

- مهلاً أيها المأمور، - قاطعه لو - أنت لم تسمع القصة من بدايتها فقبل أن يتنكر هذا الرجل في هيئة كونت إقطاعي كان مجرد بحار أي ينتمي لشريحة اجتماعية من بين أكثر الشرائح ثورية حسب قول الكتاب الأحمر الصغير.

- لا تضيع وقتي مع بحارك المغفل! (قال المأمور). هل رأيت من قبل شخصاً صالحاً يريد الإيقاع بمدّعي عام؟

قال هذا وبصق على الأرض، علامة على أنه كان سيلجأ إلى العراك إذا أنا لم أتحرك.

نهضت مستسلماً ومنقاداً إلى الفخ. ارتديت سترة من القماش السميك وبنطالاً متيناً مثل رجل يعد نفسه لمكوث طويل في إصلاحية للمجرمين. وفيما كنت أفتش في جيب قميصي وجدت بعض النقود ناولتها إلى (لو) كي لا تسقط في أيدي جلادي الأمن العام. تناولها (لو) وألقى بها على السرير.

- سآتي معك.

قال لي.

- لا. ابقَ هنا واهتم بنفسك في كل الأحوال.

نطقت بهذه الكلمات باذلاً جهداً كبيراً كي أحبس دموعي. لمحت في عينيّ (لو) الذي كان يفهم ما أريد قوله: إخفاء الكتب جيداً. وذلك تحسباً لاحتمال أن أوشي به تحت طائلة التعذيب، كنت أجهل ما إذا كنت سأحتمل الصفع والضرب والجلد الذي يمارس، كما يقولون، أثناء التحقيق داخل هذا المكتب. مثل أسير بائس اتجهت إلى المأمور وساقي ترتعشان، تماماً كما حدث لي حين ارتميت باتجاه خصمي في أول عراك أخوضه في طفولتي، لأبرهن على شجاعتي. بيد أن الارتعاش الذي

اعترى ساقي والذي يدعو إلى الخجل استحوذ عليّ كلية.

استقبلني بنظرة قاسية من عينيه الصغيرتين بقطراتهما الدموية الثلاث وبأنفاسه التي تفوح برائحة التعفن في أسنانه. ظننت للحظة أنه كان على وشك أن يمسك بي من رقبتي ويلقي بي أسفل السلم. بيد أنه بقي ساكناً. تخلت نظرته عني وتشبثت بقوائم السرير قبل أن تنتقل باتجاه (لو) موجهاً إليه السؤال:

- تتذكر قطعة القصدير التي أريتك إياها؟
- ليس تماماً. أجاب (لو) مرتبكاً.
- الشيء الصغير الذي طلبت منك أن تضعه داخل سني المتسوسة.
- نعم تذكرت الآن.
- أحملها معي دائماً.

قال المأمور مخرجاً من جيب سترته الصرة الصغيرة من الساتان الأحمر.

- إلى أين ستذهب بها؟

سأله (لو) وقد ازداد اضطراباً.

- إذا كان بوسعك أنت، ابن طبيب الأسنان أن تعالج سني سأدع رفيقك وشأنه وإلاّ سأقوده إلى مكتب الأمن، هذا الراوي القذر للقصص الرجعية.

❁ ❁ ❁

كانت أسنان المأمور - في مجملها - شبيهة بقمم سلسلة جبلية مهترئة. فعلى لثته المسودة والمتورمة كانت أسنانه الأمامية تشبه الصخور البازلتية الداكنة لعصر ما قبل التاريخ فيما الأنياب تستدعي إلى

الذهن الأحجار الجيرية الكامدة لعصر الطوفان. أما بالنسبة للضروس فقد كانت سطوح بعضها مليئة بالأخاديد وهو ما كان ابن طبيب الأسنان قد اعتبره أحد أعراض الإصابة بمرض الزهري مؤكداً ذلك بنبرة أخصائي بعلم الأمراض. عند سماع ذلك أدار المأمور رأسه باتجاه (لو) دون أن ينفي ذلك.

كان السن الذي يتسبب في آلامه موجوداً في عمق الحنك، بالقرب من ثقب أسود شبيه بحصاة الكلس، صدفة صغيرة مُهَدِّدة، وحيدة وذات مسامات. كان ذلك هو ضرس الحكمة التي كانت طبقتا الميناء والعاج فيه قد تلفتا ونخرهما التسوس. لم يكف المأمور عن ليّ لسانه اللزجة وذات اللون الوردي الشاحب المغطى بالصفرة في فمه ليجس بين وقت وآخر عمق التجويف الذي حل مكان الضرس السليم الذي انتزعه طبيب الأسنان في مستشفى يونج جينج أو ليلمس بها الحصاة المنفردة في مداعبة حميمية ليسمعنا من ثم زفرة تخفف من الألم.

فتح المأمور فمه على مصراعيه فانزلقت إبرة ماكينة الخياطة المعدنية المطلية بالكروم واستقرت على ضرس الحكمة. ما أن تحركت برقة عليه حتى انقضت لسان المأمور بحركة لا إرادية على هذا الدخيل وبسرعة البرق، تذوقت هذا الجسم المعدني البارد والغريب حتى نهايته المسنونة. اعترتها ارتعاشه، تقهقرت على إثرها كما لو أنها تعرضت لدغدعة. عادت من جديد وراحت تلعق الإبرة بشهوانية كما لو أن مذاقها الغريب قد استثارها.

ارتجت دواسة ماكينة الخياطة تحت أقدام الخياط العجوز فأخذت الإبرة الموصولة بخيط إلى بكرة الماكينة بالدوران، مذعورة انكمشت لسان المأمور. كان (لو) يمسك بالإبرة بأطراف أصابعه بإحكام. بضعة

ثوانٍ وضاعفت الدواسة من سرعتها. راحت الإبـرة تهـاجم التسـوس منتزعة عواءً حاداً من المريض. ما أن أبعد (لو) الإبرة عن فم المأمور حتى هوى هذا الأخير من على السرير المنتصب إلـى جـوار ماكينـة الخياطة ووقع مثل صخرة متهالكة على الأرض.

- أوشكت أن تقتلني! صرخ في وجه الخياط واستوى واقفاً. هـل تهزأ مني؟

- أخبرتك أنني رأيت ذلك في الأسواق. لكنك أنت من ألح علـى أن نلعب دور المشعوذين.

- هذا يسبب ألماً مبرحاً.

- هذا الألم لا يمكن تحاشيه – أكد (لو) – هل تعرف بأي سرعة يدور المثقاب الكهربائي المستعمل في المستشفى؟ إنه يدور مئات المرات خلال الثانية الواحدة. إن سرعة دوران الإبرة لا تقارن بسرعته وهو ما يتسبب في مزيد من الألم.

- حاول مرة أخرى منذ أسبوع وأنا لا آكل ولا أنام. من الأفضل أن ننتهي من هذا الأمر دفعة واحدة.

قال المأمور على نحو قاطع وهو يضبط طاقيتـه. أغمـض عينيـه ليتفادى رؤية الإبرة لحظة دخولها في فمه بيد أن النتيجة لم تختلف، دفع الألم به إلى خارج السرير والإبرة لا تزال في فمـه. حركتـه الخشـنة أرجحت المصباح الزيتي الذي كنت أمسك على لهبـه ملعقـة وبداخلـه قطعة القصدير بهدف صهرها.

كان الوضع مثيراً للضحك بيد أن أحداً لم يجرؤ على ذلك خوفاً مـن أن يعود المأمور إلى توجيه إصبع الإتهام ناحيتي من جديد.

استرجع (لو) الإبرة. مسحها. تفحصها بعينيه ثم ناول المأمور كأسـاً

من الماء لكي يتمضمض. قربّ هذا الأخير الكأس من فمه وارتشف جرعة ثم بصقها، مختلطة بالدم، على الأرض. إلى جوار طاقيته تماماً.

- إنك تنزف.

قال الخياط العجوز وقد علت الدهشة وجهه.

- إذا أردت أن أزيل التسوس فليس أمامي من طريقة إلاّ أن أقيدك على السرير.

قال (لو) ذلك والتقط طاقية المأمور وأعاد وضعها على رأسه الأشعث.

- تقيدني؟ (صرخ المأمور وقد أربد وجهه). هل نسيت أنني مفوض من قبل إدارة الناحية؟

- بما أن جسدك يرفض المساعدة فما علينا إلاّ أن نجازف.

قرار (لو) هذا أصابني بالدهشة، طرحت على نفسي سؤالاً لطالما طرحته فيما بعد وما زلت أطرحه اليوم أيضاً: كيف قبل الطاغية السياسي والاقتصادي وشرطي القرية هذا، الوضع الذي يثير كل هذه السخرية والمهانة؟ أي شيطان نفذ إلى رأسه وسول له ذلك؟ في تلك اللحظة لم يكن لديّ الوقت الكافي لأجد إجابة على هذا السؤال. إذ أن (لو) كان قد قام بتقييده بسرعة بمساعدة الخياط موعزاً بنظرة من عينيه إلى هذا الأخير أن يقوم بالعمل الشاق المتمثل في حصر رأسه بين يديه طالباً مني أن أقوم بتحريك الدواسة.

خلعت حذائي وأخذت مسؤوليتي الجديدة على محمل الجد. لكن ما أن لامس باطن قدمي الدواسة حتى أحسست بالمهمة تثقل على كاهلي. أعطاني (لو) إشارة الإيذان بالبدء. شرعت قدماي بالضغط على الدواسة لتضع الماكينة في حالة العمل. الحركة الإيقاعية التي انخرطت فيها

قدماي مدتهما بالحيوية فراحتا تتحركان كما لو كانتا تقودان دراجة على طريق فسيح. اختلجت الإبرة. ارتعشت. دخلت من جديد في تماس مع الحصاة المخاتلة والمُهَدِّدة، محدثة صريراً داخل فم المأمور الذي أخذ يتخبط مثل مجنون في صدريته. لم يكن مكبلاً إلى السرير فقط بل كان أيضاً مسمراً بين الأيدي الحديدية للخياط العجوز الذي يمسك به من رقبته يعذبه ويحصره في وضع حرياً بمشهد سينمائي أن يجسده. شحب وجه المأمور الذي راح يئن ويتنفس بصعوبة فيما يتطاير الرذاذ من بين شفتيه.

فجأة وعلى غفلة أحسست بميل سادي يتصاعد مثل حمم بركانية من أعماقي: أبطأت في الحال من حركة الدواسة متذكراً آلام إعادة التأهيل.

ألقى (لو) نظرة متواطئة باتجاهي.

أبطأتها أكثر، لأنتقم هذه المرة من تلويحه باتهامي. دارت الإبرة ببطء شديد مثل مثقاب مجهد يوشك أن يتعطل. بأي سرعة كانت تدور؟ دورة في الثانية؟ دورتان؟ من يدري؟ في كل الأحوال كانت الإبرة قد اخترقت التسوس. سَرَعْتُها من جديد ورحت أتابع دورانها الذي ما أن بلغ ذروته حتى توقفت الإبرة فجأة. وذلك لأن قدماي أسفرتا عن توقف ينم عن الضيق، تماماً كما يحدث لدراجة يوقف راكبها حركة دوّاستها حين هبوطه منحدراً خطيراً. في هذه الأثناء رحت أتفحص البكرة ثم سير نقل الحركة، متظاهراً بالهدوء والبراءة دون أن أسمح لعينيّ أن تتقلصا إلى مجرد شقين صغيرين مشحونين بالبغض... عاودت الإبرة دورانها. تحولت إلى إزميل، إلى منقاش حاقد يحفر ثقباً في الصخرة الداكنة لعصر ما قبل التاريخ مثيراً غيوماً هازئة من غبار الرخام الأصفر والدسم. لم أكن قد رأيت شخصاً بهذا القدر من السادية التي تملكتني. أؤكد لكم ذلك. سادية منفلتة من عقالها.

ما قاله الطحان العجوز

نعم. أنا من رآهما وحيدين وعاريين مثل دودتين.

كنت ذاهباً كعادتي كل أسبوع إلى وادٍ يقع في الجهة الخلفية لمنزلي لأحتطب. في طريقي إلى هناك أمر عادة بخليج السيل الصغير. أين يقع بالضبط؟ إنه على بعد كيلو متراً أو اثنين من طاحونتي تقريباً. عند مسقط سيل ينحدر من ارتفاع عشرين متر لينساب من ثم على الصخور. بوسعنا أن نسميه بركة. بيد أن مياهه عميقة. داكنة الخضرة ومحتجزة بين الصخور. إنه بعيد عن الطريق لذا فإن الناس لا يرتادونه إلاّ نادراً.

لم أرهما في الحال. العصافير النائمة على قمم الصخور هي من دلتني على مكانهما. فبينما كنت ماراً بالقرب من الخليج رأيتها تجيش وتتطاير كما لو أن شيئاً ما أفزعها. مرت في طيرانها فوق رأسي مطلقة صرخات عالية.

نعم. إنها غربان ذات مناقير حمر. كيف عرفت؟ كانت تقدر بالعشرات. إحداها، لا أعرف إن كان قد استيقظ مفزوعاً أو أنه أكثر عدوانية من الآخرين راح أثناء طيرانه يصوب منقاره باتجاهي لامساً في عبوره وجهي بأطراف أجنحته. ما زلت حتى هذه اللحظة التي أحدثك فيها أتذكر شيئاً. سأقوله لك، رائحته كانت مقيتة ومنفرة.

هذه العصافير لفتت انتباهي مما جعلني أحيد عن الطريق المعتاد. ذهبت كي أُلقي نظرة على خليج السيل الصغير وهناك رأيتهما. كانا يسبحان على نحو رشيق، يستحق المشاهدة ورأساهما خارج الماء. لا بد أنهما قاما بغطسة مثيرة، وثبة استعراضية لكي تثار العصافير وتفزع

هكذا. مترجمك؟ لا، لم أتعرف عليه مباشرة. تابعت الجسدين بنظراتي وهما يمتزجان في الماء مشدودين إلى بعضهما مثل كرة لا تتوقف عن الدوران وهو ما شوش ذهني إلى درجة أنني احتجت إلى وقت طويل لأفهم أن الغطسة لم تكن مأثرتهما الكبرى. لا! كانا يتضاجعان في الماء.

ماذا تقول؟ تزاوج؟ إنها كلمة فوق مستواي. نحن الجبليين نقول مضاجعة. لم أكن أريد أن أتلصص عليهما. لقد احمر وجهي الشائخ من الخجل. إنها المرة الأولى في حياتي التي أرى فيها اثنين يمارسان الحب في الماء. لم أستطع أن أبارح المكان. أنت تعرف أن شخصاً في سني وإن كان هذا المشهد لا يحرك فيه شيئاً إلاّ أنه ليس بوسعه أن يتفادى مشاهدته. زوبع جسداهما في الجزء الأكثر عمقاً من الماء قبل أن يتجها إلى طرف الخليج ويرتميا على صخور المجرى حيث الماء الضحل والشفاف يتلألأ تحت الشمس محوراً على نحو مبالغ فيه حركاتهما الفاحشة.

أحسست بالخجل حقاً. ليس لأنني لم أكن أريد أن أحرم عينيّ من هذه التسلية. لكن لأنه تأكد لي لحظتها أنني أصبحت عجوزاً وأن جسدي قد أصبح رخواً إذا لم آخذ بالحسبان عظامي الواهنة. كنت أعرف أنه لم يعد بوسعي أبداً معرفة فرح الماء الذي كانا يختبرانه.

بعد المضاجعة التقطت الفتاة من داخل الماء تنورة من أوراق الأشجار. عقدتها حول ردفيها. لم يكن التعب بادياً عليها كما هو حال رفيقها بل على العكس تماماً فقد كانت طافحة بالحيوية. تسلقت المنحدر الصخري. من وقت إلى آخر كانت تغيب عن بصري متوارية خلف صخرة مغطاة بالطحالب الخضراء لتعاود الظهور على أخرى كما لو

أنها كانت تنبثق من شق في الصخر. ضبطتْ تنورتها من جديد كما لو لتبقي عضوها الجنسي بمنأى عن الأبصار. كانت في طريقها نحو صخرة كبيرة تقع على ارتفاع عشرات الأمتار وتشرف على خليج السيل الصغير.

لم يكن بوسعها أن تراني بكل تأكيد. كنت متوارياً داخل كومة من الأوراق، خلف جدول بعيد عن عينيها تماماً. لم أتعرف إليها. لم تكن قد جاءت إلى طاحونتي من قبل. حين تمكنتُ من الوقوف على مقدمة الصخرة أصبحتُ قريباً بما يكفي لأن أتملى بمزيد من الافتتان جسدها العاري والمبلل تحت نهدين غضّين يميل لون حلمتيهما إلى الاحمرار.

عادت الغربان ذات المناقير الحمراء وجثمت حولها على القمة الضيقة للصخرة العالية. لكي تشق لنفسها طريقاً بينها تقهقرت فجأة خطوتين أو ثلاث إلى الخلف ثم بوثبة عالية ارتمت في الهواء وذراعاها مفتوحان على اتساعهما مثل أجنحة سنونو محلقة في السماء.

في هذه اللحظة طارت الغربان أيضاً. لكن قبل أن تحلق بعيداً راحت تغرز مناقيرها على جانبي الفتاة التي تحولت بدورها إلى طائر سنونو موغل في التحليق. كانت أجنحتها مفرودة على نحو أفقي وثابت، رفرفت إلى أن حطت على سطح الماء. اخترقت بأذرعها المتباعدة سطحه وتوارت. فتشت بنظراتي عن رفيقها. رأيته جالساً إلى جانب الخليج الصغير، مستنداً بظهره إلى صخرة، عارياً ومغلق العينين فيما بدا عضوه الجنسي مرتخياً، مجهداً ونائماً.

في تلك اللحظة خيل إليَّ أنني قد رأيت من قبل هذا الصبي في مكان ما. بيد أنني لم أتذكر أين. غادرت المكان وفيما كنت أقوم بتقطيع

الأشجار في الغابة تذكرت أنه المترجم الشاب الذي جاء معك إلى منزلي قبل بضعة أشهر.

من حسن حظ مترجمك المزيف أنني أنا من صادفه. فأنا لا يضايقني شيء ولم أفضح إنساناً من قبل إلا وكان قد وقع في مشاكل مع مكتب الأمن العام. أؤكد لك ذلك.

ماذا تريد أن أتذكر؟ إذا ما كانت تسبح جيداً؟ نعم. على نحو رائع. إنها تعوم الآن مثل دولفين. من قبل؟ لا، كانت تعوم مثل الفلاحين بمعونات ذراعيها فقط دون الساقين. قبل أن أعلمها السباحة على البطن لم تكن تباعد بين ذراعيها لقد كانت تعوم مثل الكلاب. إنها تملك جسد سباحة محترفة. لقد علمتها شيئين أو ثلاثة. الآن بوسعها أن تسبح في وضع الفراشة بحيث تتماوج خاصرتاها ويبرز جذعها على سطح الماء في مسار انسيابي بالغ الإتقان فيما ذراعاها مفتوحتان وساقاها تسوطان الماء مثل ذيل دولفين.

ما اكتشفته بمفردها هو الوثبات الخطيرة. بالنسبة لي فإنني أخاف الأماكن المرتفعة لذا فإنني لا أجرؤ على القيام بذلك. حين نكون في فردوسنا المائي وهو خليج مقفر تماماً وذو مياه عميقة ففي كل مرة تتسلق فيها إلى قمة صخرة عالية لتقفز من عليها أبقى أنا في الأسفل بحيث إذا نظرت إليها توجب على نظراتي أن ترتفع على نحو عمودي تقريباً معه أشعر بالدوار، فتختلط في عينيَّ الذروة التي تقف عليها بقمم أشجار الجنكو الكبيرة المتماوجة في أخيلة الظل. عندها تتراءى لعينيَّ صغيرة جداً مثل ثمرة تتدلى من ذروة شجرة. أحياناً تناديني، بيد أن صوتها العالي حين يصل إلى أذنيّ لا يعدو عن كونه أكثر من حفيف ثمرة، ضوضاء متنائية، تُسمع بالكاد في هدير المياه الساقطة من شاهق على الأحجار... فجأة تسقط الثمرة سابحة في الهواء طائرة خلال الريح باتجاهي لتتحول في نهاية المطاف إلى سهم ارجواني يدور حول نفسه مثل مغزل مخترقاً برأسه سطح الماء دون كثير ضوضاء أو طرطشة.

قبل دخوله السجن، كان أبي يقول أنه ليس بوسعنا أن نعلم إنساناً الرقص. كان محقاً. ما يصدق على الرقص يصدق على السباحة أو كتابة الشعر أيضاً. يجب على المرء أن يكتشف هذه الأمور بمفرده. هنالك أناس بوسعكم أن تواظبوا على تدريبهم طوال الحياة وحين يحين موعد سقوطهم من أعلى فإنهم يسقطون كصخرة لكن ليس كفاكهة محلقة أبداً.

لدي ميدالية مفاتيح، كانت أمي قد قدمتها إليّ كهدية بمناسبة عيد ميلادي. كانت عبارة عن حلقة ملبسة بالذهب تتدلى منها عدة صفائح صغيرة ورقيقة من حجر اليشم ذات خطوط خضراء. كنت أحملها معي على الدوام مثل تميمة تقيني من الشرور. كان يتدلى منها عدد كبير من المفاتيح التي لا أستخدمها أبداً. كانت هنالك مفاتيح باب منزلنا في (شنجدو)، في الأعلى مفتاح درجي الشخصي، يليه مفتاح الدرج الشخصي لوالدتي ثم مفتاح المطبخ بالإضافة إلى مطواة صغيرة ومقص أظافر، أضفت إليها فيما بعد المفتاح العمومي الذي كنت قد صنعته عند سرقة كتب (بينوكلار)، لقد احتفظت به كذكرى للسرقة السعيدة بالتحديد.

فيما بعد ظهيرة أحد أيام سبتمبر ذهبت برفقتها إلى خليج سعادتها الصغير. كان المكان خالياً من البشر كعادته. والماء لا يزال بارداً، في انتظار أن يسخن قليلاً في أشعة الشمس قرأت لها بضع صفحات من كتاب الأوهام الضائعة. وهو كتاب لـ(بلزاك) أثار لديَّ من الإعجاب أقل مما أثاره الأب جوريو أثناء ذلك قبضت هي على سلحفاة من بين صخور المجرى. بواسطة المطواة حفرت على قوقعة الحيوان رأسين لشخصين طموحين بأنوف طويلة ثم أطلقت سراح الحيوان الذي سرعان ما توارى. عندئذ وجدتني أتساءل فجأة: (من سيطلق سراحي من هذا

الجبل ذات يوم؟) إنه سؤال أحمق بكل تأكيد بيد أنني ما أن طرحته على نفسي حتى استولى عليَّ الكثير من الغم وكآبة لا تحتمل. فيما كنت أطوي نصل المطواة وقعت نظراتي على المفاتيح المتدلية من الحلقة. كان بينها هناك مفاتيح منزلنا في شنجدو التي لم تعد تفيدني في شيء. حينها أوشكت على الانتحاب. غبطت السلحفاة التي توارت للتو في أحضان الطبيعة. في نوبة كآبة ألقيت بسلسلة المفاتيح بعيداً فوقعت في الجزء العميق من المياه. عندئذ نهضتْ من مكانها وارتمت في الماء سابحة في وضع الفراشة لكي تستعيد السلسلة. بيد أنها بقيت تحت الماء وقتاً طويلاً مما أثار قلقي. كان وجه الماء ساكناً على نحو غريب وبسحنة متكدرة تنذر بكارثة، ما من فقاعة تطفو على سطحه، صرخت: (أين أنت يا إلهي؟) صرخت باسمها، بكنيتها، (الخياطة الصغيرة) ثم ألقيت بنفسي في مياه خليج السيل العميقة والشفافة. فجأة رأيتها، كانت هناك أمامي تسبح صاعدة ومحمحمة مثل دولفين دهشت وأنا أراها تقوم بحركات السباحة الانسيابية الرشيقة تلك وشعر رأسها الطويل منتشر في كافة الاتجاهات. كانت جميلة حقاً.

حين تبعتها إلى السطح رأيت سلسلة المفاتيح بين شفتيها مبللة بقطرات الماء مثل لؤلؤة متواضعة.

كانت الخياطة الصغيرة هي الشخص الوحيد في العالم الذي لا يزال يعتقد بأنني سأفلح في الانعتاق من ربقة إعادة التأهيل وإن بوسع مفاتيحي أن تكون مفيدة لي. منذ ما بعد الظهيرة تلك، في كل مرة نذهب فيها إلى الخليج الصغير فإن لعبة سلسلة المفاتيح كانت هي تسليتنا الدائمة. كنت مغرماً بهذه اللعبة، ليس لأنها كانت تتيح لي أن أطرح على نفسي أسئلة تتعلق بمستقبلي وإنما لأنها كانت تتيح لي أن أطرح على نفسي أسئلة

تتعلق بمستقبلي وإنما لأنها كانت تتيح لي الاستمتاع بمرأى جسدها العاري والفاتن يتنافض برومانسية في الماء الشفاف تقريباً فيما ترتعش حول وسطها تنورة الأوراق.

لكن اليوم فقدنا سلسلة المفاتيح في الماء. كان عليّ أن أكون أكثر إلحاحاً في ثنيها عن أن تلقي بنفسها للمرة الثانيةِ في الماء بحثاً عن المفاتيح. لحسن الحظ إننا لم ندفع الثمن غالياً. في كل الأحوال لم أعد أريد أن نضع أقدامنا هناك.

هذا المساء وعند عودتنا إلى القرية. كانت هنالك برقية من المستشفى في انتظاري تعلمني أن أمي في غرفة الإنعاش وتطالبني بالعودة حالاً.

بفضل عنايتي الناجحة بأسنانه ربما، منحني المأمور إجازة لمدة شهر سأمضيه إلى جوار سرير والدتي. سأغادر غداً صباحاً من سخرية القدر إنني سأعود إلى والديَّ دونما مفاتيح.

ما قالته الخياطة الصغيرة

كانت الروايات التي يقرأها (لو) عليَّ تخلق فيّ الرغبة في الارتماء في مياه السيل الطازجة. لماذا...!؟ لأنني كنت أتحرر من قيودي دفعة واحدة! كما يحدث أحياناً حين تنتاب المرء رغبة لا يقوى على كبحها في الإفصاح عما في قلبه!

في أعماق المياه، تتراءى لي هالة زرقاء مشعة على نحو يصعب استجلاؤها، كما يصعب في حضورها تمييز الأشياء. مثل ستار يحجب عنك الرؤية. لحسن الحظ إن سلسلة مفاتيح (لو) كانت تسقط في كل مرة تقريباً في نفس الزاوية، في وسط الخليج الصغير. زاوية بمساحة بضعة أمتار مربعة حيث الأحجار لا تُرى إلاّ لحظة أن تلمسها بيديك، أحجار بعضها صغير مثل بيضة ناصعة اللون، دائرية وصقيلة الحواف تستقر هناك منذ سنوات وربما قرون. هل تدرك ذلك؟ بعضها الآخر أكبر قليلاً ويشبه رؤوس آدميين بزوائد معقوفة مثل قرون الثيران. من وقت إلى آخر – وإن كان ذلك يحدث نادراً تقابلك أحجار وعلى نحو خاص ذات زوايا حادة وقاطعة جاهزة لاختراق رأسك، أو انتزاع قطعة من لحمك وجعلك تنزف. ربما كانت قواقع لا يعلم إلاّ الله من أين جاءت وقد تحولت إلى أحجار مغطاة بالطحالب الناعمة ومندمجة في الأرض الصخرية، مع ذلك تعرف أنها قواقع.

ماذا تقول؟ لماذا كنت أحب الارتماء وراء سلسلة مفاتيحه؟ آه! أعرف. بكل تأكيد أنت تعتقد أنني حمقاء مثل كلب يجري وراء عظمة تلقى إليه. لست واحدة من تلك الفتيات الفرنسيات اللاتي يتحدث عنهن (بلزاك). إنني مجرد فتاة جبلية مغرمة بتسلية (لو) هذا كل ما في الأمر.

تريد أن أحكي لك ما حدث آخر مرة. كان ذلك منذ أسبوع على الأقل. بالتحديد قبل أن يستقبل (لو) البرقية من عائلته. كنا قد وصلنا إلى الخليج عند الظهيرة. لم نسبح كثيراً. فقط بما يكفي لنشعر بالبهجة. أكلنا خبز الذرة، بعض البيض وبضع فواكه جلبتها معي. فيما كان (لو) يحكي لي طرفاً من القصة الشهيرة التي سبق لأبي أن سمعها ليصبح أحد المعجبين بلا قيد أو شرط بهذا المنتقم. حكى لي (لو) مشهداً صغيراً منها. أنت تعرفه. ذلك المشهد الذي يقابل فيه الكونت المرأة التي كانت يوماً ما خطيبته والتي بسببها أمضى عشرين عاماً في السجن. كانت تتظاهر بعدم معرفته. لقد لعبتْ الدور جيداً إلى حد يدعو إلى الاعتقاد أنها لم تعد تتذكر ماضيها حقاً. أوه! ضايقني ذلك كثيراً!

كنا نحتاج إلى قيلولة صغيرة بيد أنه لم يتسن لي أن أُغلق عينيَّ، لأنني كنت ما أزال أفكر في ذلك المشهد. هل تعرف ماذا عملنا. قمنا بتمثيله كما لو أن (لو) هو مونت كريستو وأنا خطيبته القديمة نلتقي في مكان ما بعد عشرين عاماً من الفراق. كان مشهداً غير عادي بحيث أنني قمت بارتجال كومة من الألاعيب التي كانت تتوافد إلى ذهني من تلقاء نفسها وتنطلق من فمي دون أدنى تفكير. (لو) هو الآخر كان يبدو كما لو أن البحار القديم قد حل في جلده. ظل متشبثاً بحبي. ما كنت أقوله كان يمزق قلبه، كان ذلك بادياً على وجهه، المسكين. لقد ألقى ناحيتي نظرة حاقدة، قاسية مهتاجة كما لو كنت حقاً زوجة الصديق الذي أوقعه في الشرك.

كانت بالنسبة لي تجربة جديدة كلية.لم أكن أتصور أن بوسع المرء أن يتقمص شخصية مختلفة عنه ويبقى مع ذلك نفسه. كأن أُمثل دور امرأة غنية و(مكتفية) فيما أنا ليس كذلك. قال لي (لو) أن بوسعي أن

أكون ممثلة كوميدية بارعة.

بعد الانتهاء من المشهد سقطت سلسلة (لو) مثل حصاة في المكان المعتاد تقريباً. اخترقتُ برأسي سطح الماء ونفذت إلى الأعماق منقبة بين الأحجار ومفتشة الزوايا المعتمة بنانة تلو الأخرى وفجأة وفي العتمة الحالكة تقريباً لمستُ ثعباناً. أوه، منذ سنوات لم أكن قد فعلت ذلك بيد أنني تعرفت حتى وأنا تحت الماء على بشرته الزلقة والباردة. بحركة لا إرادية ابتعدت عنه فوراً وصعدت إلى السطح. من أين جاء؟ لا أعرف عن ذلك شيئاً. لا بد أن السيل قد جلبه معه. كانت حفث جائعة تفتش لنفسها عن مملكة جديدة ربما.

بعد بضع دقائق ورغم معارضة (لو) ارتميتُ في الماء من جديد. كنت أرفض أن أترك مفاتيحه لثعبان. مع ذلك كم كنت خائفة! لقد أفقدني الثعبان صوابي: حتى وأنا في الماء أحسست بالعرق البارد يتفصد على ظهري. الأحجار الساكنة التي تغطي الأرض بدت لي فجأة كما لو أنها تشرع في الحركة لتصير كائنات حية تتحرك حولي. تخيل أنني صعدت إلى السطح لأسترد أنفاسي.

المرة الثالثة كانت توشك أن تكون أحسن حالاً. رأيت أخيراً السلسلة. تراءت لي على نحو ضبابي هناك في عمق المياه دون أن تفقد بريقها. لكن في اللحظة التي وضعت يدي عليها أحسست فجأة على قبضتي اليمنى بوخزة كريهة ومؤلمة جداً من أنياب معقوفة كوتني وجعلتني أتراجع تاركة السلسلة.

هذه الندبة الشنيعة لا بد أنها ستظل تتراءى على إصبعي حتى بعد خمسين عاماً. المس.

كان (لو) قد غادر لمدة شهر.

كنت أحبُ إلى درجة العبادة أن أجد نفسي من وقت إلى آخر وحيداً، أقوم بما يحلو لي، أتناول طعامي وقت ما أريد. كان مقدراً لي أن أكون الأمير السعيد المسيطر داخل منزلنا ذي الأوتاد لولا أن (لو) كان قد كلفني بمهمة صعبة عشية مغادرته.

- أريد أن أطلب منك خدمة. آمل أن تكون الحارس الشخصي للخياطة الصغيرة في غيابي.

هكذا قالي لي مخفضاً من نبرة صوته.

حسب رأي (لو) كانت الخياطة الصغيرة موضوع رغبة الكثيرين من شباب الجبل بما فيهم (الشباب الذين يعاد تأهيلهم) لذا فإنه كان يتوقع أن يستغل خصومه المحتملين غيابه لينقضوا على دكانها وينخرطوا في معركة ضارية (لاتنسى - قال لي - إنها ملكة جمال فينيق السماء).

كانت مهمتي تتمثل في أن أكرس نفسي لحضور يومي إلى جوارها مثل خفير على باب قلبها، بحيث لا أترك فرصة لأي منافس أن ينخرط في حياتها الخاصة. أن ينزلق إلى مجال لم يعد ينتمي إلاّ إلى (لو)، آمري.

وافقت على القيام بالمهمة مندهشاً وسعيداً لكونه اختارني لذلك. أي ثقة عمياء وضعها (لو) فيّ قبل مغادرته بطلبه مني هذه الخدمة! كان الأمر أشبه بمن يودع كنزاً خرافياً، غنيمة حياته دون أن يعتريه أدنى شك في أن بوسعي السطو عليها.

في ذلك الحين لم تكن تخامرني سوى رغبة واحدة: أن أكون جديراً بثقته. رحت أتخيل نفسي في وضع جنرال عام لجيش مهزوم مكلف بأن يجتاز صحراء شاسعة ومرعبة لمرافقة زوجة صديقه المفضل، جنرال آخر. كان عليّ أن أمضي الليالي كلها مدججاً بالمسدس والرشاش. أن

أقف في نوبة حراسة .أمام خيمة هذه المرأة الرفيعة المستوى لدحر الوحوش الراغبة بلحمها وعيونها المتقدة بالرغبة تتوامض في الظلام مثل بقع فوسفورية. بعد شهر من السير في الصحراء وصلنا إلى بر الأمان بعد أن خبرنا التجارب الأكثر إفزاعاً: العواصف الرملية، النقص في المؤونة الغذائية، نقص الماء، تمرد أفراد الجيش... وعندما تشرع المرأة في الركض باتجاه صديقي الجنرال ليرتمي كل منهما في أحضان الآخر، أسقط أنا في الغيبوبة على قمة الكثيب الأخير من شدة التعب والظمأ.

وهكذا، منذ غداة مغادرة (لو) إلى المدينة كان بالإمكان مشاهدة شرطي بملابس مدنية يسير كل صباح على الطريق المؤدي إلى قرية الخياطة الصغيرة. شرطي مثابر بوجه جاد ومشية مشدودة يتقدم على الطريق بسرعة مثل طائر مدفوع إلى النجاح. ما أن يصل الطريق إلى المنزل القديم لـ(بينوكلار) حتى ينحرف نحو الشمال عندها يجد الشرطي نفسه مجبراً على السير في الاتجاه المعاكس للريح، الظهر محني والرأس منكس، مثل متجول مجرب وعنيد. حين يصل إلى الممر الخطير الذي تحدثت عنه من قبل والذي يبلغ من العرض ثلاثين سنتمتراً والمحاط بهاويتين تبعثا على الدوار، هذا الممر الشهير الذي لا يمكن لحجة الجمال أن تكلل بالنجاح إلاّ بالمرور عليه. يبطئ من خطواته. لكن دون أن يتوقف أو يحبو على أربعة. كان عليه أن يكسب كل يوم معركته ضد الدوار. أن يجتاز الممر بخطوات مترنحة واضعاً عينيه في العينين الناتئتين واللامكترثتين للغراب ذي المنقار الأحمر الجاثم دائماً على نفس الصخرة في الطرف الآخر من الممر. كان بوسع أدنى خطوة خاطئة أن تودي بحياة الشرطي البهلوان في أعماق الهاوية اليمنى أو اليسرى. هل

تحدث رجل البوليس هذا إلى الغراب؟ هل حمل إليه بعض فتات الخبز؟ لا أعتقد ذلك. بيد أنه كان شديد الاستغراب. وقد ظل إلى وقت طويل بعد ذلك يحتفظ في ذاكرته بالنظرة اللامكترثة التي كان يلقيها عليه العصفور. هذه النظرة التي لا نجد مثيلاً لها إلا لدى الآلهة. مع ذلك لم يتسن للعصفور أن يزعزع إيمان شرطينا بالشيء الوحيد الذي كان يستحوذ على تفكيره: مهمته.

كان بالإمكان أيضاً أن نشاهد على ظهر رجل البوليس سلة الخيزران التي كان يحملها (لو) من قبل وفي قعرها رواية (بلزاك) التي قام بترجمتها (فولوي) متوارية تحت أوراق الأشجار، بعض الخضروات وبعض من حبوب الأرز أو الذرة. في الصباحات الغائمة حيث تكون السماء أكثر دنواً من المعتاد يخيل لكم وأنتم تتابعوه من بعيد أن سلة الخيزران تتسلق بمفردها الطريق متوارية في الغيم الرمادي.

كانت الخياطة الصغيرة تجهل أنها موضوعة تحت الحماية. لم يكن الأمر بالنسبة لها أكثر من استبدال قارئ بآخر.

كنت على يقين من أن قراءتي أو القراءة بأسلوبي كانت تسر مستمعتي أكثر من قراءة سلفي، أقول ذلك دون أدنى إدعاء. أن تقرأ بصوت عال صفحة كاملة كان يبدو لي أمراً يثير من الملل ما لا طاقة لي على احتماله. لذا قررت أن أقوم بقراءة تقريبية، أي أن أقرأ بصمت صفحتين أو ثلاث أو فصل قصير بينما تنصرف هي إلى العمل على ماكينة خياطتها، ثم بعد اجترار قصير أطرح عليها سؤالاً أو أطلب منها أن تحزر ما كان قد حدث.

بمجرد أن تجيب على سؤالي أحكي لها محتوى الكتاب عبارة تلو الأخرى تقريباً دون أن أتمكن من منع نفسي من أن أضيف بين وقت

وآخر تفصيلاً صغيراً هنا وآخر هناك، لنسميها لمسات شخصية صغيرة بحيث أن القصة تجاب لها مزيداً من المتعة. حين أحس أن التعب قد نال من الأب العجوز (بلزاك) عندها لا أتورع حتى عن ابتكـار مشـاهد أو إدخال واقعة من رواية أخرى.

لنتحدث عن مؤسس هذه السلالة من الخياطين، عـن صـاحب هـذا المتجر العائلي! فبين كل رحلتين مـن رحلاتـه العمليـة بـين القـرى المحيطة. كانت مدة مكوثه في مأواه الشخصي تتقلص غالباً إلى يـومين أو ثلاثة أيام. لقد اعتاد سريعاً على زياراتي اليومية. بل كان يستحسـنها لا سيما وأنها كانت تستبعد جماعة الراغبين بالقرب من ابنته والمتنكرين في هيئات زبائن. من هذه الناحية كان من أفضل المتواطئين في سـبيل إنجاز مهمتي. لم يكن قد نسي التسع ليالٍ التي قد أمضيناها فـي منزلنـا مستمعاً إلى قصة الكونت مونت كريستو. هذه التجربـة تكـررت فـي مسكنه الخاص أيضاً فقد استمع إلى بعض الأجزاء من قصة ابـن العـم (بو). صحيح أن القصة كانت أقل تشويقاً بسبب مناخها الكئيـب الـذي يهيمن على أعمال (بلزاك). إلا أنه أبدى الكثير من التأثر. الغريـب أن حضوره تزامن ولثلاث مرات متتالية ودون تعمد على قراءتي للفصـل الذي يتعرض فيه (جيبو) الخياط وهو شخصية ثانويـة لمـوت بطـيء يجرعه إياه بائع الخردة (ريمونوك).

ليس بوسع شرطي آخر في العالم أن يقوم بالمهمة بالحمـاس الـذي أبديته. فبين فصل وآخر من فصول الرواية كنت أشارك فـي الأعمـال المنزلية بطيب خاطر. كل يوم كنت أنا من يحمل على كتفيه المياه مـن البئر العمومي ليملأ الخزان الخاص بعائلة الخياطة الصغيرة. كنت أحمل ما يُعادل دلوين خشبيين كبيرين يومياً. غالباً مـا كنـت أعِّـد للخياطـة

الصغيرة وجباتها مكتشفاً أثناء ذلك المسرات المتواضعة التي يحصل عليها المرء أثناء انهماكه في التفاصيل العديدة التي يقتضيها إعداد الوجبات: غسل وتقطيع الخضروات أو فلق الحطب بواسطة فأس غير مشحوذ جيداً. حمل الحطب والحيل الماكرة التي يجب اتباعها لتأجيج النار التي توشك في كل لحظة على الانطفاء. كنت لا أتردد أحياناً إذا ما اقتضى الأمر أن أنفخ الجمرات وفمي مفتوح على مصراعيه كي أُأجج النار بأنفاس شبابي النافدة الصبر محاطاً بالدخان الكثيف والخانق. كانت الأيام تتعاقب بسرعة كبيرة وعما قريب سأجدني قد تحولت تحت تأثير الرقة والاحترام اللذين رحت أعامل المرأة بهما والتي ألهمتني روايات (بلزاك) بهما إلى امرأة تغسل الملابس بيديها عند الجدول حتى مع مطلع ذلك الشتاء عندما كانت الخياطة الصغيرة منهمكة في الطلبات.

هذه الألفة التي خبرت في إطارها شتى أنواع المشاعر والحنان جعلتني على صلة مباشرة بالأنوثة. ببلسمينة، هل يعني لك شيئاً هذا الاسم؟ بوسع المرء أن يجدها عند بائعي الزهور أو في نوافذ المنازل. إنها نبتة ذات زهور صفراء أحياناً لكنها غالباً قانية الحمرة وذات ثمار ضخمة ومضطرمة. ما أن يحين أوان نضجها حتى تنفجر عند أدنى تماس قاذفة بمحتواها من الحبوب إلى الخارج. لقد كانت الإمبراطورة الرمزية لجبل فينيق السماء. لأنه في شكل زهورها بإمكاننا أن نرى رأساً وأجنحة وسيقاناً وحتى ذيل طائر الفينيق.

عند نهاية ما بعد ظهيرة أحد الأيام وجدنا نفسينا نحن الاثنين بمفردنا في المطبخ وبمنأى عن نظرات الفضوليين. رجل البوليس الذي جمع بين وظيفة القارئ والحكواتي والطباخ والغسالة، غسل أنامل الخياطة الصغيرة داخل طشت خشبي، ثم طلى برقة أظافرها كلٍ على حدة

بالعصارة الغليظة المستخلصة من زهور البلسمينة المسحوقة. لم تكن لأصابعها أي علاقة بأصابع الفلاحات. فباستثناء الندبة الوردية التي خلفتها الأنياب المعقوفة لثعبان خليج السيل الصغير على الإصبع الوسطى ليدها اليسرى فقد كانت أصابعها خالية تماماً من التشوهات التي يخلفها العمل في الحقول.

- أين تعلمت طرائق الفتيات هذه؟

سألتني الخياطة الصغيرة.

- كانت أمي تحدثني عنها. حسب قولها فإنك عندما تنتزعين صباح غد، القطع الرقيقة من النسيج المثبت على أطراف أصابعك فإن أظافرك ستبدو عندها مصبوغة بحمرة حية كما لو أنك قد طليتها بالأصباغ.

- هل سيبقى هذا لوقت طويل؟

- لعشرات الأيام.

أردت أن أطلب منها أن تمنحني صباح غد الحق في أن أطبع على أظافرها الحمراء قبلة كمكافأة على العمل الرائع الذي قمت به لكن ندبة إصبعها الوسطى التي كانت لا تزال طازجة أجبرتني على احترام التحريمات التي تمليها عليّ التزاماتي الأخلاقية. والتمسك بقوانين الفروسية التي تعهدت بمراعاتها أمام من عيّنني لهذه المهمة.

ذلك المساء وفيما كنت خارجاً من منزلها حاملاً على ظهري سلة الخيزران وفي داخلها كتاب ابن العم (بو) أدركت مقدار الغيرة التي كنت أثيرها لدى شباب القرية. فما أن وضعت أقدامي على الطريق حتى أخذت جماعة مكونة من خمسة عشر فلاحاً تلاحقني فأصبت بالدهشة وأنا أرى مقدار العدوانية التي تلوح على وجوههم مما جعلني أحث

الخطى. فجأة ارتفع صوت من وراء ظهري يتحدث بلكنة المدينة على نحو بالغ السخرية.

- آه!... اسمحي لي أيتها الخياطة الصغيرة أن أغسل ملابسك.

عندها تضرج وجهي بالحمرة. أدركت دون أدنى التباس أنهم يقلدون طريقتي في الكلام، يتندرون عليّ ويسخرون مني. أدرت رأسي لأتعرف على مؤلف هذه الكوميديا الشنيعة فرأيت أعرج القرية وهو الأكبر سناً في المجموعة ممسكاً بيده مقلاعاً يلوح به مثل عصا القائد باتجاهي.

تظاهرت بعدم سماع شيء واستأنفت طريقي بيد أن الجماعة لحقت بي وراحت تلكزني من الخلف مرددة في جوقة عالية عبارة الأعرج منفجرة بضحك فاسق ضاج ومتوحش.

في الحال اتخذ الاحتقار شكلاً أكثر تحديداً: عبارة قاتلة نطقها أحدهم وهو يشحذ إصبعه تحت أنفي.

- غسّال قذر لسراويل الخياطة الصغيرة!

أصابتني هذه الجملة بصدمة لما تحمله من تحديد دقيق كنت حقاً قد غسلت أحد سراويلها. لذا لم أجرؤ على التفوه بكلمة ولا على إخفاء شعوري بالضيق. في هذه اللحظة كان الأعرج قد سبقني واعترض طريقي. خلع بنطاله ثم ثوبه الداخلي كاشفاً عن عضوه المنكمش الأشعث الشعر.

- خذ، أريدك أن تغسل سروالي أيضاً.

صرخ بهذه العبارة وأرفقها بضحكة محرضة وفاحشة وقد شوه الغضب وجهه فيما يلوح بسرواله المرقع والمصفر والمغطى بالبقع الداكنة فوق رأسه. فتشت عن كل الشتائم التي كنت أعرفها لكن لم يتسن لي أن أتفوه بواحدة لأنني ما أن أزمعت على ذلك حتى تحول الغضب

والانفعال العارمان اللذان انتاباني إلى ارتعاش داهمتني معه الرغبة في البكاء.

ما حدث بعد ذلك لم أعد أتذكره جيداً. أتذكر فقط أنني وثبت بشراسة ملوحاً بسلتي وانقضضت على الأعرج بهدف ضربه على وجهه لكنه أفلح في تفادي الضربة فوقعت على كتفه الأيمن. في هذه المعركة التي خضتها ضد الجميع هزمت، وقد وجدت نفسي مكتفاً بقبضات شابين قويين. انفرطت سلتي. وقعت. على إحدى أوراق الملفوف ولطختنا غلاف ابن العم (بو) الذي انطرح على الأرض معفراً بالغبار.

فجأة خيم صمت. مع أن المعتدين – وهم جماعة ممن انجرحت كرامتهم لرفض الخياطة الصغيرة الزواج منهم – كانوا أميين، فقد طفت على وجوههم علائم الذهول بمجرد ظهور هذا الموضوع الغريب: الكتاب.

باستثناء الشابين اللذين ظلا يمسكان بي من اليدين فقد دنوا جميعاً منه. شكلوا دائرة حوله. قرفص الأعرج على الأرض ونصفه الأسفل عار. فتح الغلاف فوقعت نظراته على صورة لـ(بلزاك) بالأبيض والأسود، يبدو فيها بذقنه الطويل وشواربه الفضية.

– هل هو (كارل ماركس)؟ (سأل أحدهم الأعرج). لا بد أنك تعرفه. لقد سافرت أكثر منا.

تردد الأعرج قبل أن يجيب.

– هو (لينين) ربما؟ قال آخر.

– (ستالين) بدون زيه العسكري.

مستفيداً من الحيرة التي استولت على الجمع حررت ذراعي وقد تملكني حنق عارم. ارتميت باتجاه ابن العم (بو) مثل غواص تقريباً بعد

أن أبعدت الفلاحين من حوله.

- إياكم أن تلمسوه.

صرخت كما لو أن الأمر يتعلق بقنبلة موقوتة توشك على الانفجار.

ما أن فطن الأعرج إلى ما يحدث حتى كنت قد انتزعت الكتاب من بين يديه وانطلقت مسرعاً على الطريق. رشقة كثيفة من الأحجار والصرخات رافقت فراري للحظة طويلة (الغسال القذر للسراويل! حقير! سنعيد تربيتك!) وفي اللحظة ذاتها أصابت أذني اليسرى حصاة قذفت بواسطة المقلاع مسببة لي ألماً فقدت معه سمعي جزئياً. بحركة لا إرادية وضعت يدي على مكان الإصابة فأحسست بقطرات من الدم تسيل على أصابعي.

كانت الشتائم التي ما فتئت تزداد كثافة تتعالى ورائي في صوت ضاج وبذيء رددت المنحدرات الصخرية صداه الذي تحول إلى تهديد بالإعدام التعسفي، إلى إنذار بمكيدة جديدة. ليصمت من ثم كل شيء.

في طريق العودة، قرر الشرطي الجريح مكرهاً التخلي عن مهمته.

الليلة التي أعقبت الحادث كانت طويلة بوجه خاص، بدا فيها منزلنا ذو الأوتاد مقفراً ورطباً وأكثر حلكة من أي وقت مضى، فيما كانت تحلق في جنباته رائحة منزل مهجور، رائحة باردة، زنخة، متعفنة، لزجة وملموسة لا يخطئها الأنف. كأنه لا يقطنه أحد.

لكي أنسى ألم أذني اليسرى أعدت قراءة روايتي المفضلة (جون كريستوف) في ضوء اثنين أو ثلاثة من مصابيح الكيروسين. لكن لم يكن بوسع الدخان الكثيف المتصاعد منها أن يطرد هذه الرائحة التي انتابني في حضورها شعور بالضياع أخذ يتنامى تدريجياً.

كان الدم قد توقف عن النزيف. بيد أن أذني كانت ممزقة ومتورمة

ومستمرة في إيلامي وهو ما أعاقني عن متابعة القراءة. ربت برقة عليها فإذا بالألم الحاد يعاودني من جديد ويجعلني أمضي ليلتي مثل مصاب بالسعار.

رغم انقضاء عدد كبير من السنوات إلاّ أن ذكرى تلك الليلة لا تزال تطاردني حتى اليوم. ما لم أتوصل إلى فهمه رد فعلي خلال تلك الليلة. فبدلاً من التفكير بطريقة للانتقام وقطع أذنيّ الأعرج الغيور رحت أتخيل نفسي أهاجم من جديد من قبل العصابة نفسها. رأيتني موثقاً إلى جذع شجرة ليتسنى لأفراد العصابة إعدامي بعد أن ينزلون بي أقسى العذاب. كانت أشعة شمس الغروب تتلألأ على نصل السكين الذي يلوح به الأعرج في الهواء. لم يكن يشبه من قريب أو بعيد سكين الجزار، كان نصله طويلاً وحاداً على نحو غير مألوف. بأطراف أصابعه داعب الأعرج شفرة سلاحه برقة ثم رفعه وجز أذني اليسرى بحركة لم يحدث معها أدنى ضوضاء. سقطت أذني على الأرض. ارتدت عالياً لتعاود السقوط مجدداً، فيما راح جلادي الفظ يمسح النصل الملطخ بالدم. في هذه اللحظة أقبلت الخياطة الصغيرة وهي تذرف الدموع فأوقفت بوصولها تنفيذ عقوبة الإعدام الوحشية التي كانت بانتظاري وجعلت عصابة الأعرج تلوذ بالفرار. بأناملها المصطبغة أظافرها بالحمرة المتوهجة لعصارة البلسمينة فكت الخياطة الصغيرة وثاقي. تركتني أحشر أصابعها في فمي لأشرع من ثم في لعقها بطرف لساني المتلوي والحارق. آه! العصارة الغليظة للبلسمينة، رمز جبلنا المتجلط على أظافرها المتلألئة هذا كان يمتلك مذاقاً عذباً ورائحة مسكية تقريباً أثارت رغبتي الجنسية.

ما أن تعرضت الحمرة الصبغية لريقي حتى غدت أكثر توهجاً

وحيوية. شرعت تلين. تحولت إلى حمم بركانية تفح وتنتفخ وتزوبع في فمي وتغلي مثل فوهة بركان حقيقة. قام السائل البركاني برحلة بحث طوعية: سال على امتداد جذعي المدمى، يتلوى على هذا السهل القاري، ملتفاً حول نهداي ومنزلقاً على البطن ليتوقف في سرتي. بقوة الدفع الذاتي للسانه اخترقها إلى الداخل متغلغلاً داخل تجاويف أوردتي وأحشائي منتهياً بالعثور على الطريق الذي قاده إلى منبع ذكورتي المضطرمة، الفوارة الفوضوية ليبلغ إلى السن الذي يمتلك فيه المرء استقلاله الذاتي حيث يصبح قادراً على رفض الإرغامات الصارمة والزائفة التي كان قد غذاها في نفسه رجل البوليس.

تأرجحت شعلة مصباح الكيروسين الأخير وقد نفد زيته. وانطفأت مخلفة رجل البوليس ممداً على بطنه في الظلام مستسلماً لخيانة ليلية وملوثاً سرواله.

كان المنبه ذو الأرقام الفسفورية يشير إلى منتصف الليل.

- لديّ مشكلة.

أخبرتني الخياطة الصغيرة.

كان ذلك في اليوم التالي لحادث الاعتداء عليّ من قبل جماعة الراغبين في الزواج منها. كنا في منزلها؟ تحديداً في المطبخ تغلفنا رائحة الأرز المطهي في الطنجرة والدخان الذي يتبدل لونه متخذاً الأخضر طوراً والأصفر طوراً آخر. كانت تقطع الخضار فيما كنت منهمكاً في تأجيج النار أما أبوها الذي كان قد عاد من رحلته فقد بقي في الحجرة الرئيسية حيث كانت تتناهى إلى مسامعنا الضوضاء المألوفة لماكينة الخياطة.

لم يكن بادياً عليه ولا على ابنته أنهما على علم بما حدث لي. ما أثار دهشتي أنهما لم يلاحظا الجرح في أذني اليسرى. كنت منشغل البال بالبحث عن ذريعة أتحجج بها لطلب إعفائي من المهمة لذا توجب على الخياطة الصغيرة أن تعيد عبارتها لانتشالي من استغراقي.

- لديّ مشكلة كبير.
- مع عصابة الأعرج؟
- لا.
- مع (لو)؟.

تساءلتُ بلهفة منافس غيور. أجابت بحزن:

- ولا مع (لو). إنني غاضبة من نفسي، لكن الوقت أصبح متأخراً.

- عن ماذا تتحدثين؟
- أشعر بالغثيان. هذا الصباح تقيأت مرة أخرى.

في هذه اللحظة أحسست بوخزة دبوس في قلبي وأنا أرى الدموع تنبجس من عينيها، لتنساب بصمت على وجهها متساقطة قطرة قطرة على أوراق الخضروات وعلى يديها التي كانت أظافرهما لا تزال مصطبغة بالحمرة.

- إذا علم أبي بذلك فإنه سيقتل (لو).

قالت ذلك واستأنفت ذرف دموعها بعذوبة لا تخالطها أي زفرة.

أخبرتني أن دورتها الشهرية قد انقطعت منذ شهرين. وأنها لم تتحدث عن ذلك إلى (لو) مع أنه كان المسؤول أو المذنب في حدوث هذا الاضطراب. عند مغادرته لم تكن تساورها المخاوف بعد أما الآن وقد مضى شهر على غيابه فقد تبدل حالها.

دموعها غير المتوقعة وغير المألوفة هذه أثارت اضطرابي في الحال أكثر من محتوى اعترافها. أردت أن آخذها بين ذراعيّ كتعبير عن المواساة لكن ضجيج الدواسة كان يتعالى من تحت أقدام والدها مثل نداء يذكرني بالواقع.

كانت تتألم ألماً لا يجد العزاء لنفسه. رغم أنني كنت آنذاك أجهل كلية الأمور الجنسية إلاّ أنني أدركت معنى شهرين من غياب الدورة الشهرية.

الآن كانت عدوى الارتباك قد انتقلت إليّ تماماً حتى أنني ذرفت بعض الدموع دون أن أبدي لها ذلك كما لو كان الطفل ينتمي إليّ. كما لو كنت أنا وليس (لو) هو من مارس الحب معها تحت شجرة الجنكو الرائعة أو في المياه الصافية للخليج الصغير. أحسست بعاطفة كبيرة وبأنني قريب منها. لو طُلب مني في تلك اللحظة أن أمضي حياتي كحام لها ما ترددت. كنت على استعداد أن أموت عازباً إذا كان من شأن ذلك

أن يزيح عنها الضيق. لو كان القانون يسمح بالزواج منها حتى زواجاً شكلياً لكنت فعلت، لا لشيء إلاّ ليتسنى لها أن تضع دون أن تتهم بمخالفة القانون وبما يضمن لطفل صديقي عدم التعرض للأذى.

ألقيت نظرة على بطنها المتوارية تحت كنزة صوفية حمراء مصنوعة يدوياً. بيد أنني لم أرَ سوى الاختلاجات المنتظمة والمؤلمة الناجمة عن بكائها الصامت وأنفاسها التي تخرج بصعوبة. أدركت عندها أنه عندما تشرع امرأة في البكاء لانقطاع دورتها الشهرية فمن المستحيل إيقافها. انتابني الخوف وأحسست برعدة تجتاح ساقيّ.

نسيت أمراً أساسياً: أن أسألها إن كانت ترغب أن تكون أماً وهي لم تزل في الثامنة عشرة من العمر. كان سبب النسيان بسيطاً: إن إمكانية الاحتفاظ بالطفل مستحيلاً تماماً. إذ ما من مستشفى أو قابلة في هذا الجبل ستوافق على اختراق القانون لتخرج إلى العالم طفلاً غير شرعي. من ناحية أخرى كان القانون يحرم الزواج قبل بلوغ الخامسة والعشرين مما يعني أن على (لو) أن ينتظر سبع سنوات لكي يمتلك الحق في الزواج من الخياطة الصغيرة.

هذا الفقدان للأمل تضاعف بعدم وجود بقعة من الأرض غير خاضعة للقانون بحيث يتسنى لـ(روميونا) و (جولييتنا) الحامل الفرار ومواصلة العيش عليها على غرار العجوز (روبنسون) وبمساعدة الشرطي السابق الذي تحول إلى (فوندوردي)، فقد كان كل سنتمتر من هذا البلد واقعاً تحت الرقابة اليقظة لـ(ديكتاتورية البروليتاريا) التي تبسط هيمنتها على امتداد الصين مثل شِبَاكٍ لا توجد بها حلقة ناقصة يمكن النفاذ منها.

حين عادت إلى هدوئها تناقشنا حول كل الوسائل الممكنة لإجهاض الحمل. تبادلنا الرأي من خلف ظهر أبيها مفتشين عن الحل الأكثر سرية

والأكثر ضماناً لسلامتها ولإنقاذ العشيقين من عقوبة سياسية وإدارية ومن الفضيحة أيضاً. كانت التشريعات صريحة بهذا الخصوص بحيث يستحيل العثور على ثغرة واحدة فيها: ليس بوسع أي إنسان أن يجيء بطفل إلى العالم قبل الزواج كما يحرم القانون الإجهاض.

في هذه اللحظة الحاسمة بالذات لم يكن أمامي إلاّ أن أُبدي إعجابي بنفاذ بصيرة (لو) لكونه قد عهد إليّ بمهمة حمايتها وهو ما عزز دوري. إذ نجحت في إقناع امرأته غير الشرعية بعدم الذهاب إلى المعالجين الشعبيين الذين لم يكن مستبعداً ليس فقط أن يسمموها بأعشابهم وإنما أيضاً أن يقوموا بفضحها ومن ثم إجبارها على الزواج من أعرج القرية بعد أن تصبح سيرتها على كل لسان. أقنعتها أيضاً أن القفز من سطح المنزل على أمل أن ينزل الحمل ليس سوى حماقة خالصة.

صباح اليوم التالي وحسب الاتفاق الذي توصلنا إليه ليلة البارحة غادرت إلى (يونج جينج)، مركز الإقليم في حملة استطلاعية تهدف إلى جس إمكانيات قسم الأمراض النسائية في المستشفى.

(يونج جينج) لا بد أنكم لا تزالون تتذكرونها إنها المدينة الصغيرة التي ما أن تطهى في مطعم دار حكومتها وجبة اللحم البقري بالبصل حتى تصل رائحة الوجبة إلى أنوف جميع ساكنيها. كان مستشفى المدينة الصغير يقع على رابية خلف المعروضة في الهواء الطلق. كان يتكون من مبنيين، يقع الأول وهو قسم الاستشارات الخارجية عند أسفل التل، تزين مدخله صورة كبيرة للرئيس (ماو)، يبدو فيها مرتدياً بدلته العسكرية ويلوح بيده نحو حشد من المرضى، يبدون في الصورة، واقفين مع أطفالهم في طابور ومنخرطين في البكاء والعويل. فيما يقف الثاني على قمة الرابية. كان عبارة عن مبنى مقضض بالجير ويتكون

من ثلاثة أدوار بلا شرفات ومخصص للرقود.

بعد نهارين من السير على الأقدام وليلة من السهر أمضيتها في نُزل مليّ بالقمل وصلت إلى المدينة ذات صباح. تسللت إلى قسم الاستشارات الخارجية بالسرية التي يتحلى بها جاسوس. لكي لا أُثير الانتباه تواريت وسط جمع من الفلاحين تساعدني على ذلك سترتي القديمة المصنوعة من جلد الخرفان. ما أن وضعت قدميّ في هذا الوسط الطبي الذي كنت قد ألفته منذ طفولتي حتى انتابني شعور بالضيق ورحت أرشح بالعرق. في الدور الأرضي وفي طرف رواق معتم، ضيق ورطب ومشحون بالرائحة المنفرة للأقبية إلى حد بعيد كانت النساء يجلسن منتظرات على صفين من المقاعد بمحاذاة الجدران، غالبيتهن ببطون منتفخة فيما يصدر عن بعضهن أنين خافت بفعل الألم. في هذا المكان بالذات عثرت على كلمة أمراض نسائية مكتوبة بطلاء أحمر على صفيحة خشبية معلقة على باب مكتب مغلق بإحكام. بعد بضع دقائق انفتح الباب ليسمح لمريضة هزيلة بالخروج. كانت تحمل في إحدى يديها روشتة علاج فيما كانت الأخرى لا تزال متوارية خلف كابينة الكشف. لمحت بالكاد خلال الباب الذي عاود الانغلاق طيف الطبيب بسترته البيضاء جالساً خلف أحد المكاتب. سحنة هذا الباب المنيع أجبرتني على انتظار انفتاحه القادم. كنت أريد أن أتعرف على هيئة طبيب النساء هذا. لكن حينما التفتُّ... أي نظرات مستثارة تلك التي رمقتني بها النساء وهن يشيحن بوجوههن عني! غاضبات، أقسم بذلك!

ما أثار غضبهن هو سني. إنني متأكد مما أقول. ربما كان يتوجب عليّ أن أضع وسادة على بطني وأتنكر في ثياب امرأة لك أبدو مثل حامل. لأن شاب في التاسعة عشرة من العمر – كما هو حالي –

ويرتدي معطفاً من جلد الخرفان يقف في رواق النساء لن يُنظر إليه إلاّ كدخيل مزعج. كنّ ينظرن إليّ كما لو كنت منحرفاً جنسياً أو متلصصاً يسعى لأن تقع عيناه على كنوز أنثوية.

كم كان انتظاري طويلاً! بيد أن الباب لم يتزحزح. من شدة الحر تبلل قميصي من العرق. كي لا تصاب قطعة (بلزاك) المنسوخة على الجانب الداخلي من معطفي بالضرر خلعت معطفي. أخذت النسوة يتبادلن النظرات والهمس وقد بدين في هذا الرواق المعتم وغير المضاء إلا بنور غسقي كمن يخطط لمؤامرة أو يتأهب لتنفيذ عقوبة إعدام تعسفي.

- ماذا تعمل هنا؟

سألتني إحداهن بصوت عدواني مصحوب بضربة من يدها على كتفي، حملقت باتجاهها. كانت امرأة بشعر قصير ترتدي معطفاً رجالياً وبنطلوناً وعلى رأسها طاقية عسكرية خضراء يزينها نوط أحمر تتراءى عليه الصورة المذهبة لـ(ماو) كتعبير خارجي عن ضميرها الوطني المتيقظ.

كانت حاملاً. مع ذلك كان وجهها مغطى بالكامل تقريباً بالبثور التي كان بعضها متقيح وبعضها الآخر مندملاً وهو ما جعلني أشفق على الطفل النامي في بطنها.

لكي أثير غيظها قليلاً قررت أن أتصرف كمعتوه مستمراً في الحملقة ناحيتها إلى أن أعادت سؤالها بسذاجة أولاً ثم بصوت أكثر بطئاً كما في فيلم يعرض بالبطيء. وضعت يدي اليسرى خلف أذني كما يفعل شخص أبكم وأخرس.

- أذنه كامدة ومتورمة.

قالت إحدى النساء الجالسات.

- حجرة طبيب الآذان ليس هنا! ستجده في الأعلى، في قسم العيون!

ما أن تلفظت المرأة ذات الطاقية بعبارتها هذه بصوت عال كما لو أنها تتحدث لأصم حتى شاعت الفوضى وسط النساء. رحن يتجادلن حول من يعالج أمراض الآذان، طبيب العيون أم طبيب الآذان. في هذه الأثناء انفتح الباب. هذه المرة أسعفني الوقت لكي أحفر في ذاكرتي الشعرات الطويلة التي غزاها الشيب والوجه المجهد ذو التقاطيع البارزة لطبيب أمراض النساء الذي كان يمسك بين شفتيه سيجارة. منذ النظرة الأولى قدرت أنه في العقد الرابع من العمر.

بعد هذا التعرف الأولي عليه قمت بنزهة طويلة. هذا يعني أنني درت في دائرة مفرغة في شارع المدينة الوحيد. لا أعرف كم من المرات سرت إلى نهاية الشارع مجتازاً ساحة كرة السلة وراجعاً إلى مدخل المستشفى دون أن أتوقف عن التفكير بهذا الطبيب. كانت ملامحه أكثر شباباً من والدي. لم أكن أعرف إذا ما كانا يعرفان بعضهما. كنت قد علمت أن مواعيد دوامه في قسم الأمراض النسائية هي الإثنين والخميس وأنه في بقية أيام الأسبوع يداوم بالتناوب في كل من قسم الجراحة والأمراض البولية وأمراض الجهاز الهضمي. كان من المحتمل أنه قد عرف أبي أو على الأقل قد سمع باسمه لأنه قبل أن يصبح هذا الأخير عدواً للشعب كان ينعم ببعض الشهرة في مقاطعتنا. حاولت أن أتخيل أبي أو أمي في مكانه داخل مستشفى الإقليم هذا يستقبلان وراء الباب الذي يحمل يافطة مكتوب عليها (أمراض نسائية) الخياطة الصغيرة وولدهما المحبوب. بكل تأكيد سيبدو الأمر لهما بمثابة المصيبة الكبرى في حياتهما، مصيبة أشد وطأة حتى من الثورة الثقافية! من دون حتى

السماح لي بأن أشرح لهما من هو المسؤول عن الحمل سيلقيان بي في الخارج، حانقين، ولن يقبلا أن يرياني أبداً. ما كان يصعب فهمه حينئذ أن (المثقفين البرجوازيين) الذين ألحق بهم الشيوعيون الكثير من الأذى كانوا في دخيلة أنفسهم يتمتعون بنفس القدر من الصرامة الذي لمضطهديهم.

في تلك الظهيرة تناولت وجبة الغذاء في المطعم. أتذكر أنني ما أن شرعت في تناول وجبتي حتى أحسست بالندم لأنه كان من شأن الوجبة الباذخة أن تستنفد نقودي. لكن لم يكن باليد حيلة، كان المكان الوحيد الذي بإمكان المرء أن يأكل فيه محاطاً بأناس لا يعرفونه. من يدري؟ ربما التقيت فيه بشخص سوقي يعرف كل طرائق الإجهاض.

طلبت ديكاً محمراً مقلياً بالتوابل الطازجة وطبقاً من الأرز. طواعية جعلت وجبتي تستغرق من الوقت أطول مما تستغرقه وجبة عجوز أدرد. لكن كنت كلما تناقص اللحم في طبقي أفقد أكثر فأكثر أي أمل في الالتقاء بأحدهم. لا بد أن سوقيّ المدينة كانوا إما أكثر فقراً أو أكثر بخلاً مني بحيث لا يضعون أقدامهم في ذلك المطعم.

كان قد انقضى يومان على وصولي إلى المدينة دون أن يسفر ترددي على قسم أمراض النساء عن نتيجة. الرجل الوحيد الذي تسنى لي أن أعرض عليه الموضوع كان الحارس الليلي للمستشفى وهو رجل بوليس في الثلاثين من العمر سبق له أن فصل من عمله لمدة عام بتهمة مضاجعته فتاتين. بقيت في مسكنه حتى منتصف الليل. استمتعنا بالحديث عن إخفاقاتنا ساردين لبعضنا مآثرنا كما لو كنا مغامرين. طلب مني أن أعرفه بالفتيات الجميلات اللاتي يعاد تأهيلهن في جبلنا وذلك لأنني كنت قد ادعيت أنني خبير في هذا المجال، بيد أنه رفض أن يمد يد العون

لصديقتي التي (تعاني من مشاكل في الحيض) قائلاً بخوف:

- لا تحدثني عن هذا. إذا علمت إدارة المستشفى أنني أتدخل في هذا النوع من الأشياء فإنها ستتهمني بالعودة إلى الجريمة وسترسلني إلى السجن مباشرة دون أدنى تردد.

في اليوم الثالث، عند الظهيرة تقريباً وقد تملكني اليأس أمام مناعة باب مكتب أمراض النساء رحت أتأهب للعودة إلى الجبل لكن ذكرى شخص مرقت في رأسي فجأة: قسيس المدينة.

لم أكن أعرف اسمه. كل ما كنت أعرفه أنه كان فيما مضى قسيساً لكن مع مجيء الثورة الثقافية منع من ممارسة وظائفه الدينية. المرة الوحيدة التي رأيناه فيها كانت عند مجيئنا إلى المدينة لحضور أحد العروض السينمائية. ما أن وقعت نظراتنا عليه حتى أثار شعره الفضي الطويل وهو يتطاير في الريح إعجابنا. في الحقيقة كانت ملامحه تنطوي على مسحة أرستقراطية لا تفارقه حتى عندما كان يكنس الشارع مرتدياً السترة الطويلة الزرقاء لعمال النظافة وفي يده مكنسة بذراع خشبي طويل فيما الناس بما فيهم الأطفال الذين في سن الخامسة يتوقفون بين الفينة والأخرى ليوجهوا له بعض الشتائم أو يضربونه ويبصقون في وجهه. كنت كلما فكرت فيه أتذكر النادرة التي سمعتها: في أحد الأيام فتش الحرس الأحمر منزله فوجد كتاباً مخبأً تحت وسادته مكتوباً بلغة غريبة لم يستطع أحد أن يفك رموزها (لم يكن المشهد بعيد الشبه عما حدث مع عصابة الأعرج حين تحلقت حول ابن العم "بو") عندئذ توجب إرسال الغنيمة إلى جامعة بكين لمعرفة إذا ما كان الأمر يتعلق بالإنجيل في نسخته اللاتينية. ما أن تحققوا من ذلك حتى دفع القسيس الثمن غالياً إذ أُجبر على تنظيف الشارع، نفس الشارع دائماً، منذ الصباح حتى

المساء، أي بمعدل ثماني ساعات يومياً وفي مختلف الظروف الجوية. وهكذا تحول بمرور الوقت إلى جزء ثابت من ديكور المدينة.

إن الذهاب لاستشارة قسيس في موضوع الإجهاض كان يبدو لي فكرة غريبة. لكن ألم أكن بصدد أن أفقد صوابي من أجل الخياطة الصغيرة؟ ثم تذكرت فجأة وقد اعترتني الدهشة بأنني منذ ثلاثة أيام لم أكن قد رأيت ولو لمرة واحدة الفروة الفضية لعامل النظافة العجوز بحركاته الآلية.

سألت بائع السجائر إذا ما كان القسيس قد أنهى مدة السخرة. أجابني:

- لا. إنه على بعد بنانتين من الموت، المسكين.
- ماذا ألم به؟
- السرطان. لقد عاد ولداه من المدينتين الكبيرتين حيث يعيشان وأدخلاه مستشفى الإقليم.

ركضت دون أن أعرف لماذا. بدلاً من اجتياز المدينة بتمهل انخرطت في جري تقطعت معه أنفاسي. حين وصلت إلى قمة الرابية حيث المبنى المخصص لقسم الرقود قررت أن أجرب حظي وأنتزع نصيحة القسيس المُحتضر.

ما أن دلفت إلى الداخل حتى لسعت أنفي رائحة الأدوية ممتزجة بعفن المراحيض غير المعتنى بها والأبخرة والزناخة مشكلة رائحة كريهة أوشكتُ بسببها على الاختناق. كان الأمر كما لو كنت بصدد الدخول إلى مخيم للاجئين أثناء الحرب: كانت حجرات المرضى تستعمل كمطابخ أيضاً. كانت الطناجر، ألواح التقطيع، المقالي، الخضروات، البيض، قوارير صلصة الصوية والخل والملح، تفترش الأرضيات على نحو فوضوي، إلى جانب أسرة المرضى وبين الطشوت والركائز التي تتدلى

منها قِرَبْ نقل الدم. في ساعة تناول وجبة الغذاء هذه كان بعض المرضى منحني على الطناجر المدخنة يغمس أعصيته في داخلها، ويتشاجر على أشرطة المعكرونة فيما كان البعض الآخر يطوح بعجّة البيض لتنث وتفرقع في الزيت الفائر. أصابني هذا الديكور بالحيرة. كنت أجهل أنه لا يوجد في مستشفى الإقليم مطعم وأن على المرضى أن يتدبروا شؤون غذائهم بأنفسهم في الوقت الذي ينوؤن فيه تحت وطأة أمراضهم، هذا إذا لم نتعرض بالذكر إلى هؤلاء الذين كانت أجسادهم متهالكة، مشوهة وأحياناً مجدوعة الأعضاء. كان هؤلاء الطباخون البهلوانيون، المبقشون باللصق الحمراء والخضراء والسوداء وبالضمادات المحلولة إلى المنتصف والتي تتأرجح داخل الأبخرة المتصاعدة من المياه الفائرة داخل الطناجر يقدمون مشهداً صاخباً ومقلوباً رأساً على عقب.

عثرت على القسيس المحتضر في غرفة تحتوي على ستة أسرة. كان ممداً على إحداها، يتدلى من معصمه أنبوب الغذاء الطويل محاطاً بولديه وزوجتيه. كانوا جميعاً يبدون في العقد الرابع من العمر. كانت هنالك أيضاً امرأة مسنة تذرف الدموع فيما تعد له وجبة الغذاء على موقد كيروسين ينتصب إلى جوار السرير. تسللت إلى جوارها وقرفصت.

- هل أنت زوجته؟ سألتها.

أكدت سؤالي بهزة من رأسها. كانت يداها ترتعشان إلى درجة اضطررت معها أن أتناول البيض منها لأقوم بكسرها. كان أبناءه يرتدون معاطف سماوية زرقاء، مزررة حتى العنق. كانت هيئاتهم تنم عن موظفين أو مستخدمين في مواكب الدفن. مع ذلك كانوا يحاولون

جاهدين أن يخلفوا في عيون من يراهم انطباعاً بأنهم صحفيون مستغرقون في تشغيل جهاز تسجيل صدأ بطلاء أصفر متقشر يصدر عنه في تلك اللحظة صريرٌ.

فجأة، ضوضاء حادة ومصمة صدرت عن الجهاز وترددت مثل إنذار، موشكة على إسقاط صينيات المرضى الآخرين الذين كانوا يتناولون وجبة غذائهم على الأسرة. تمكن الابن الأصغر من خنق هذه الضوضاء الشيطانية فيم كان أخوه يدني ميكرفوناً من شفتي القسيس.

- قل شيئاً ما، بابا.

تضرع الابن الأكبر.

كان الشعر الفضي للقسيس يتهدل على جوانب رأسه وعلى وجهه الذي بات من الصعب التعرف عليه. كان نحيلاً، مجرد جلد على عظم، جلد شاحب مصفر برقة ورقة الكتابة فيما جسده الذي كان متيناً من قبل أصبح ضئيلاً للغاية. كان متكوراً تحت الغطاء يصارع الألم. أخيراً فتح جفونه المتهدلة. استقبلت هذه العلامة على الحياة بدهشة ممتزجة بالفرح من قبل المحيطين به. دنا الميكرفون مجدداً من فمه فيما شرع الشريط الممغنط في الدوران مصدراً صريراً شبيهاً بصرير زجاج مهشم حين تمر عليه الأحذية.

- بابا ابذل قليلاً من الجهد. سنسجل صوتك للمرة الأخيرة من أجل أحفادك.

- إن كان بوسعك أن تردد إحدى عبارات الرئيس (ماو) فإن ذلك سيكون نموذجياً. عبارة واحدة أو شعار هيا! سيعرفون أن جدهم لم يكن رجعياً وإن دماغه قد تغير!

صرخ الابن الذي تحول إلى مهندس صوت.

رعشة غير ملموسة اجتاحت شفتي القسيس. استغرق دقيقة كاملة ليهمس ببضع كلمات غير مسموعة، أقرت حتى المرأة العجوز بعدم قدرتها على فهمها.

ثم غرق في غيبوبة.

أعاد ابنه الشريط إلى الخلف وأخذت كل العائلة تصغي من جديد لهذه الرسالة السرية.

– لقد تحدث باللاتينية. تلا صلاته الأخيرة باللاتينية.

قال الابن الأكبر.

– صدقت.

أكدت المرأة العجوز وهي تمسح بالمنديل جبين القسيس المبلل.

نهضتُ واتجهتُ ناحية الباب دون أن أتفوه بكلمة. بالمصادفة لمحت طيف طبيب أمراض النساء يمر بسترته البيضاء، أمام الباب مثل شبح. عند مروره رأيته – كما لو في مشهد سينمائي – يسحب النفس الأخير من سيجارته، ينفث الدخان ويلقي بالعقب على الأرض، ثم يختفي... هرولتُ بهدف اجتياز الغرفة لكنني اصطدمت بقارورة صلصة الصوية ثم بمقلاة انجرفت معي على الأرضية. هذا العائق أخرني، لذا فإنني حين وصلت إلى الرواق، لم أعثر له على أثر.

فتشت عنه الأبواب واحداً تلو الآخر، مستفسراً من أقابلهم. أخيراً دلني أحد المرضى مشيراً بإصبعه إلى باب غرفة في آخر الرواق.

– رأيته يدلف إلى الغرفة الخاصة تلك. يبدو أن عاملاً في مصنع الراية الحمراء قد قطعت الآلة أصابعه الخمسة.

اقتربت من الغرفة. كان بابها مغلقاً. مع ذلك أمكنني الاستماع إلى الصرخات المؤلمة لرجل، تطلع من وراء الباب. دفعت الباب برقة

فانفتح دون مقاومة ودون أن يصدر أدنى صوت. ولجت إلى الداخل مغلقاً الباب ورائي. كان الطبيب يضمد يد الجريح الجالس على السرير. كان شاباً في حوالي الثلاثين من العمر، بجذع عار، أسمر ومفتول العضلات وبعنق قوي يرتد إلى الوراء بتوتر تحت رأسه المستند إلى الجدار. كانت يده الدامية قد لفت بالكاد بالطبقة الأولى من الضماد. كان الشاش الأبيض غارقاً في دمه الذي يسيل في قطرات كبيرة إلى طشت من الخزف موضوع على الأرض إلى جوار السرير، محدثة تكتكة، شبيهة بضوضاء غير منتظمة لجرس، تتخلل نواح المريض.

كانت سحنة الطبيب تنم عن الإجهاد الناجم عن الأرق، تماماً كما كانت حالته حين رأيته في مكتبه في المرة الأخيرة. بيد أنه كان هذه المرة أقل لا مبالاةً و"نأياً". كان ينشر لفافة كبيرة من الشاش، يعصب بها يد الرجل دون أن يعير انتباهاً لحضوري. لم يكن بوسع حتى معطفي المصنوع من جلد الخرفان أن يثير انتباهه. لقد كان منهمكاً بشدة في عمله.

أخرجت من جيبي سيجارة. أشعلتها. ثم أدنيتها بحركة تلقائية من السرير ووضعتها – كما لو لمنقذ محتمل لصديقتي – بين شفتي الطبيب. نظر ناحيتي دون أن يتفوه بكلمة وشرع في التدخين وهو متسمر في عمله. أشعلت أخرى وناولتها إلى المريض الذي تناولها بيده اليمنى.

– ساعدني، اجذبها بقوة.

خاطبني الطبيب وهو يمد ناحيتي طرفاً من لفافة الشاش. رحنا وكل منا يقف عند طرف من السرير نجذب اللفافة كلٍ باتجاهه مثل رجلين يحزمان أمتعة بحبل. تناقص نزيف الدم وتوقف الجريح عن الأنين. ترك سيجارته تسقط على الأرض ونام بغتة تحت تأثير المخدر – كما قال

الطبيب – .

– من أنت؟

سألني وهو يلف الشاش حول اليد المضمدة.

– إنني ابن طبيب يعمل في مستشفى المقاطعة، في الوقت الحالي لم يعد يعمل فيه.

– ما اسمه؟

أردت أن أذكر له اسم والد (لو) بيد أن اسم أبي هو الذي أفلت من فمي. صمت مزعج خيم عقب هذا الإفشاء. خيل إليّ أنه يعرف ليس فقط اسم أبي وإنما أيضاً خيباته السياسية.

– ماذا تريد؟ سألني.

– إنها أختي.. لديها مشكلة.. مشاكل تتعلق بالحيض منذ ثلاثة أشهر.

– هذا غير ممكن.

قال ذلك ببرود.

– لماذا؟

– ليس لدى أبوك فتيات. غادر أيها الكذاب الصغير!

لم يتفوه بهاتين الجملتين بصوت عال مشيراً بإصبعه ناحية الباب. لكنني رأيت أنه كان غاضباً حقاً، كان يوشك أن يرميني بعقب السيجارة في الوجه.

إحمر وجهي من الخجل، استدرت باتجاهه، تقدمت بضع خطوات. عندها سمعتني أقول:

– سأقترح عليك صفقة: إذا ساعدت صديقتي فإنها ستظل ممتنة لك طوال حياتها. من ناحيتي سأمنحك كتاباً لـ(بلزاك).

لا بد أن سماعه لهذا الاسم وهو يضمد يداً مبتورة في مستشفى إقليم بعيد جداً عن العالم كان وراء ذلك الذهول الذي اعتراه. بعد لحظة تردد فتح فمه:

– قلت لك من قبل أنك كاذب. كيف بوسعك أن تمتلك كتاباً لـ(بلزاك)؟

دون أن أجيب انتزعت معطفي. قلبته. أريته القطعة التي كنت قد نسختها على الجهة الجرداء، كان المداد شاحباً أكثر من ذي قبل بيد أنه ظل مقروءاً. ما أن بدأ مطالعته أو بالأحرى كشفه حتى أخرج علبة سجائره وناولني واحدة. راح يطوف عينيه على القطعة وهو يدخن سيجارته.

– إنها ترجمة (فولوي) – قال مدمدماً – أعرف أسلوبه إنه مثل أبيك المسكين، عدو للشعب.

هذه العبارة دفعتني إلى البكاء. أردت أن أتمالك نفسي، بيد أنني أخفقت. انتحبت مثل غلام صغير. لم تكن هذه الدموع من أجل الخياطة الصغيرة ولا من أجل مهمتي المنجزة لكن من أجل مترجم (بلزاك) الذي لم أكن أعرفه. هل هناك ما هو أكرم وأشرف من أن يلقى أديب ما يليق به من التقدير وهو لا يزال على قيد الحياة؟

إن الانفعال الذي انتابني في تلك اللحظة أصابني أنا نفسي بالدهشة. إن ذكراه لا تزال حتى الآن تطغى تقريباً على تفاصيل تلك المقابلة. بعد أسبوع، وفي يوم الخميس وهو اليوم الذي كان الطبيب متعدد التخصصات والمغرم بالأدب قد حدده اجتازت الخياطة الصغيرة صالة العمليات متنكرة بثياب امرأة في الثلاثين وبشريط أبيض حول جبينها، في الوقت الذي لم يكن فيه المسؤول عن الحمل قد عاد بعد. ظللت جالساً

لمدة ثلاث ساعات في الرواق أطارد بأذنيّ الأصوات الطالعة من وراء الباب: ضوضاء بعيدة، مشوشة ومختنقة، انسياب ماء من صنبور، صرخة حادة لامرأة لا أعرفها، الأصوات غير المفهومة للممرضين، خطوات مهرولة.. ونجحت العملية.

حين سمح ليّ أخيراً بالدخول إلى قسم العمليات الجراحية كان طبيب أمراض النساء ينتظرني في حجرة مفعمة برائحة الكربون. على سرير في عمق الحجرة كانت الخياطة الصغيرة جالسة ترتدي ملابسها بمساعدة إحدى الممرضات.

- لقد كانت فتاة، إذا كان يهمك معرفة ذلك.

قال لي الطبيب بصوت هامس.

أشعل عود ثقاب وبدأ بالتدخين. بالإضافة إلى كتاب "أورسول ميرويت" الذي كنت قد وافقت على منحه إياه، أعطيته أيضاً كتاب "جون كريستوف، كتابي المفضل في ذلك الوقت، مترجماً بواسطة السيد (فولوي) نفسه. مع أن المريضة كانت تعاني من صعوبة في المشي إلاّ أن الزفرة التي أطلقتها لحظة خروجها من المستشفى كانت تشبه زفرة متهم لحظة خروجه من المحكمة وقد ظهرت براءته بعد أن كان مهدداً بالسجن المؤبد. رفضت الخياطة الصغيرة عقد خروجها أن ترتاح في النزل. ألحت عليّ في الذهاب إلى المقبرة حيث كان القسيس قد دفن قبل يومين. حسب رأيها فإنه من قادني إلى المستشفى، مرتباً بيد لا مرئية مقابلتي مع طبيب الأمراض النسائية. اشترينا بما تبقى لنا من النقود كيلو من اليوسفي ووضعناها مثل تقدمة على قبره الإسمنتي المنسي البائس. أسفنا لعدم معرفتنا اللاتينية – هذه اللغة التي تحدث بها لحظة احتضاره متضرعاً إلى الله أو لاعناً حياته التي أمضاها كعامل نظافة، لا أدري –

لكي نتلو بها مرثيتنا. أوشكنا على أن نقسم أمام قبره بأن نتعلم هذه اللغة لنعود ذات يوم نتحدث معه بها، بيد أن التردد اعترانا. بعد حوار طويل قررنا أن لا نفعل، لأننا لم نكن نعرف أين يمكننا العثور على منهج – هل كان علينا أن نقوم بعملية سطو جديدة على منزل آباء (بينوكلار) – وبالأخص مدرساً لأنه حسب علمنا لم يكن في محيطنا أي صيني آخر يعرف اللاتينية.

على شاهدة القبر كان اسمه محفوراً إلى جوار تاريخين. ما عدا ذلك لم يكن هنالك أية إشارة إلى حياته الشخصية ولا إلى وظيفته الدينية. وحده الصليب كان مطلياً بالأحمر الفظ كما لو كان صيدلانياً أو طبيباً. أقسمنا أننا إذا ما أصبحنا أغنياء ذات يوم ولم تعد الأديان محرمة، سنعود لنشيد على قبره نصباً كبيراً متعدد الألوان نرسم عليه صورة لرجل متوج بالأشواك مثل مسيح لكن غير مصلوب، لأن يداه بدلاً من أن تسمّرا من راحتيهما إلى الصليب ستمسكان بمقبض مكنسة.

أرادت الخياطة الصغيرة أن تذهب إلى المعبد البوذي المسّور والمغلق لترمي من أعلى السور ببعض الأوراق النقدية كتعبير عن الامتنان لما منحته السماء من النعم. بيد أنه لم يعد بحوزتنا فلس واحد.

أخيراً أزفت اللحظة التي سأصف لكم فيها الصورة الختامية لهذه القصة. حان وقت إسماعكم فرقعة ستة أعواد من الثقاب في ليلة شتائية.

حدث ذلك بعد انقضاء ثلاثة أشهر من عملية الإجهاض التي أجريت للخياطة الصغيرة، ومن عودة (لو) إلى جبلنا أيضاً.

كان الجو مفعماً برائحة الجليد فيما الدمدمة الخافتة للريح والضوضاء الصادرة من الزريبة تجوسان الظلام عندما تعالت، رنانة وباردة، الفرقعة الجافة لعود من الثقاب. على مسافة بضعة أمتار من النور الأصفر المنبثق شرعت الظلال الداكنة والجامدة لمنزلنا في الارتعاش.

بعد نصف مسار أوشك عود الثقاب على الانطفاء مختنقاً بدخانه الخاص الأسود. استرد أنفاسه. اقترب بتردد من الأب (جوريو) ليتشامخ من ثم مثل نصب ناري أمام منزلنا المقام على أوتاد. أخذت الأوراق التي أمسكت بها النيران تتلوى وتتكوم على بعضها فيما راحت الكلمات تتقاذف إلى الخارج. استيقظت الفتاة الفرنسية البائسة من حلمها المؤرق لتجد نفسها محاطة بالنيران. أرادت أن تنجو. بيد أن الوقت كان متأخراً جداً. حين عثرت على ابن عمها المحبوب كانت النيران قد التهمتها مع عبدة النقود، مع الراغبين في الزواج منها، مع تركتها التي تقدر بمليون،كل ذلك كان قد تحول إلى دخان. أعواد الثقاب الثلاثة الأخرى أشعلت، في وقت واحد، النيران في الكومة المكونة من ابن العم "بو" والكولونيل "شابريت ويوجين جروندبه" فيما أمسكت نيران الخامس بـ"كازيمودو" الذي كان بعظامه المعوجة فاراً على طرقات نوتردام، حاملاً على ظهره الحسناء "اسمرالدا". بينما كانت "مدام بوفاري" من نصيب السادس. بيد أن اللهب وبوحي من جنونه الخاص توقف فجأة ولم

يشأ أن يبدأ بالصفحة التي نقابل فيها "إيما" في غرفة بأحد فنادق مدينة "روا"، تدخن في سريرها فيما عشيقها ملتصق بها وهي تدمدم "ستهجرني...". عود الثقاب الهائج هذا لكن المنتقى بعناية اختير، عوضاً عن ذلك، لمهاجمة نهاية الكتاب وبالتحديد المشهد الذي يخيل فيه لـ"إيما" قبل موتها أنها تسمع أعمى يغني:

فتـاة تحلـم بالحـب   نضـارة يـوم مشـرق كفيلـة بجعـل

في اللحظة التي شرعت الكمنجة فيها بإرسال لحن جنائزي داهمت هبة ريح الكتب المشتعلة. تطاير رماد "إيما" الطري مختلطاً برماد مواطنيها المتفحمين لينساب من ثم في الهواء.

انزلقت شعرات القوس المعفرة بالرماد على الأوتار المعدنية التي تتلامع عليها أضواء النيران. صوت هذه الكمنجة كان صوتي. عازف الكمنجة كان أنا.

(لو)، مشعل الحرائق وابن طبيب الأسنان العظيم، هذا العاشق الرومانسي الذي كان يحبو على أربع على الممر والمغرم الكبير بـ(بلزاك) كان في تلك اللحظة جالساً القرفصاء، ثملاً ومحدقاً بافتتان في النيران، منوماً تحت تأثير ألسنتها التي تتراقص داخلها كلمات أو كائنات كانت عزيزة على قلوبنا قبل أن تتحول إلى رماد. طوراً يبكي وطوراً يضحك.

لم يكن هنالك أحد كي يكون شاهداً على الأضحية التي قدمناها. كان سكان القرية قد اعتادوا على كمنجتي وصاروا يفضلون المكوث في أسرتهم الدافئة. كنا نتمنى أن يكون صديقنا الطحان العجوز حاضراً كي يصاحبنا بآلته بأوتارها الثلاثة مغنياً مواويله الشبقية القديمة ومموجاً

التغضنات الناعمة التي لا تحصى لبطنه. بيد أنه كان مريضاً. زرناه قبل يومين ووجدناه مصاباً بالزكام.

كان تنفيذ عقوبة الإعدام حرقاً لا يزال مستمراً. "الكونت مونت كريستو" الشهير والذي كان قد نجح في وقت سابق في الهرب من زنزانته في قصر وسط البحر استسلم لجنون (لو). الرجال والنساء الذين كانوا يعيشون في حقيبة (بينوكلار) لم يتمكنوا هم أيضاً من الإفلات. حتى لو كان مأمور القرية قد بزغ أمامنا في تلك اللحظة ما كان ليتملكنا الخوف ولربما ما كنا لنتورع في تلك الحالة من النشوة أن نلقيه حياً في النار كما لو كان شخصية روائية.

على كل حال لم يكن هناك أحد سوانا نحن الاثنين. كانت الخياطة الصغيرة قد غادرت ولم تعد تأتي أبداً لرؤيتنا. مغادرتها التي كانت مثيرة كلية للدهشة حدثت على نحو مباغت ومخيف. استغرقنا وقتاً طويلاً في التنقيب في ذاكرتينا التي أضعفتهما الصدمة علّنا نعثر على بضع دلائل، مستمدة بوجه خاص من ملابسها، توحي بأن ضربة قاتلة كانت على وشك الوقوع.

قبل شهرين من ذلك أخبرني (لو) أنها كانت قد صممت لنفسها رافعة صدر حسب وصفة وجدتها في "مدام بوفاري". عندئذ قلت له بأن الملبس النسائي الداخلي الأول والوحيد في جبل فينيق السماء جدير بأن يدخل التاريخ المحلي.

- وسواسها الجديد - قال لي (لو) - هو أن تصير شبيهة بفتيات المدينة. أنت تلاحظ أنها حين تتحدث الآن فإنها تحاكي لهجتنا.

عزينا تصميمها لرافعة الصدر إلى الدلال البريء الذي ينتاب عادة فتاة في سنها. لكنني لا أعرف كيف أهملنا القطعتين الجديدتين التي لم

تكن أي منهما صالحة للاستعمال في هذا الجبل. في البدء كانت قد استردت معطفي الماوي الأزرق ذا الأزرار الثلاثة الصغيرة المذهبة على الكمين والذي كنت قد ارتديته لمرة واحدة فقط عند زيارتنا للطحان العجوز. قصرته وأصلحته جاعلة منه سترة نسائية حافظت مع ذلك على مسحة ذكورية تتمثل في جيوبه الأربع وياقته الصغيرة. كان عملاً رائعاً بالفعل، بيد أنه، في ذلك الوقت، لم يكن بالإمكان أن تُرتدى إلاّ من قبل امرأة تعيش في مدينة كبيرة. ثم أنها كانت قد طلبت من أبيها أن يشتري لها من مستودع مدينة (يونج جينج) زوجاً من الأحذية القماشية البيضاء بياض ناصع، لا يحتمل أكثر من ثلاثة أيام في الوحل المنتشر في كل مكان من الجبل.

أتذكر أيضاً العام الميلادي الجديد. لم يكن عيداً بالمعنى الحقيقي وإنما يوم إجازة وطنية فقط. كالمعتاد ذهبنا، (لو) وأنا، إلى منزلها. عند دخولنا كدت لا أتعرف عليها. خيل إليّ أنني أمام ابنة مدينة في المرحلة الثانوية. فبدلاً من جديلتها الطويلة والمألوفة والمعقودة بشريط أحمر حل شعر قصير مقصوص إلى مستوى الأذنين وهو ما أضفى عليها جمالاً مختلفاً مماثلاً لذلك الذي نجده لدى مراهقة عصرية. ابتهج (لو) لهذا التحول الذي لم يكن يتوقعه. ابتهاجه الأعمى بلغ ذروته عند رؤيتها تجرب العمل الرائع الذي كانت قد أنجزته للتو: سترتها الذكورية الخشنة التي تضافرت مع تسريحتها الجديدة والحذاء الذي حل مكان خفها المنزلي المتواضع، لتمنحها حسية غريبة، هيئة رشيقة أعلنت موت المرح الفلاحي الأخرق قليلاً الذي كان يسمها. في رؤيتها وقد تبدلت على هذا النحو غمرت (لو) سعادة فنان يرى أخيراً عمله يكتمل، همس في أذني:

- بضعة أشهر من المطالعة لم تذهب هدراً.

عاقبة هذا التحول، إعادة التأهيل (البلزاكي) هذا تردد على نحو غير مسموع في عبارة (لو) هذه. بيد أننا لم نفطن لذلك. هل كان الشعور بالرضا عن الذات قد مارس تأثيراً مخدراً علينا؟ أم أن الأمر كان بكل بساطة أننا لم ندرك جوهر الروايات التي قرأناها على مسامعها؟

ذات صباح من شهر أبريل. وبالتحديد الصباح السابق لليلة المجنونة التي نفذنا فيها عقوبة الإعدام حرقاً، حرثنا، (لو) وأنا، وكل منا وراء ثور حقل الذرة وحولناه كلية إلى حقل أرز. حوالي الساعة العاشرة أوقفت صرخات سكان القرية عملنا وقادتنا باتجاه منزلنا المقام على أوتاد حيث كان الخياط العجوز بانتظارنا.

حضوره بدون ماكينة الخياطة بدا لنا نذير شؤم. بيد أننا حين أصبحنا واقفين أمامه فإن شعره الأشعث ووجهه المجعد الذي ضاعفت من أخاديده تغضنات جديدة ووجناته التي كانت على نحو مخالف للمألوف ناتئة وصلبة، كل هذا زرع فينا الذعر.

- ابنتي غادرت هذا الصباح، عند الفجر.

قال لنا.

- غادرت؟ (تساؤل "لو"). لا أفهم ماذا تقصد.

- أنا أكثر منك، لكن هذا ما حدث.

حسب قوله فإن ابنته حصلت من الهيئة الإدارية للبلدة بسرية تامة على كل الأوراق والتصريحات الضرورية للقيام برحلة طويلة كما أنها ليلة البارحة فقط صرحت بنواياها في تغيير نمط حياتها والذهاب لتجرب حظها في مدينة كبيرة.

- سألتها إذا ما كنتما وراء قرارها - استأنف حديثه - لكنها قالت

لا وإنها ربما ستكتب إليكما حين تستقر في مكان ما.

- كان يتوجب عليك أن تثنيها.

قال (لو) بصوت يسمع بالكاد.

كان منهاراً.

- لم يكن هنالك شيء بوسعي أن أعمله ولم أعمله. لقد بلغ بي الأمر أن قلت لها: إذا كنت ستغادرين فلا تضعي قدميك هنا ثانية أبداً.

أجاب العجوز المنهك.

عند سماع ذلك انطلق (لو) في جري جامح ويائس على الطرقات الوعرة لكي يلحق بالخياطة الصغيرة. لحقتُ به، متخذاً طريقاً مختصرة على الصخور. في البدء لم تكن تفصل بيننا سوى مسافة قصيرة. كان المشهد شبيهاً بأحد أحلامي وبالتحديد ذلك الحلم الذي فيه تسقط الخياطة الصغيرة في إحدى الهاويتين المحيطتين بالممر الخطير. ركضنا، (لو) وأنا، داخل إحدى الهاويات حيث لا توجد أية طريق. تزحلقنا على امتداد المنحدرات الصخرية دون أن نلقي بالاً ولو لثانية واحدة إلى احتمال أن نسقط ونتحطم إلى قطع. مرت عليّ لحظة لم أعد أعرف إذا ما كنت أركض في حلمي القديم أو في الواقع أم أنني أركض وأحلم في نفس الوقت. كانت كل الصخور ذات اللون الرمادي الداكن تقريباً مغطاة بالطحالب الزلقة والمبللة. وشيئاً فشيئاً تضاعفت المسافة التي تفصلني عن (لو). من فرط الجري والرفرفة فوق الصخور والتنطط من صخرة إلى أخرى، تواردت إلى ذهني خاتمة حلمي القديم في أدق تفاصيلها. الصرخات المشؤومة لغراب بمنقار أحمر لا تراه العين أخذت تتردد في رأسي، طوال الوقت كنت على يقين أننا كنا في طريقنا إلى العثور على جسد الخياطة الصغيرة ملقى عند أقدام أحد الصخور، على رأسها المرتد

نحو بطنها صدعان كبيران نازفان يمتد أحدهما إلــى جبينهــا الجميــل والرائع التكوين. اعترى رأسي المرتج بفعل حركة الخطوات دوار. مــع ذلك استمريت في الركض دون أن يكون لديّ سبب واضح للانخراط في هذا الركض الخطير. هل هي صداقتي لــ(لو)؟ حبي لحبيبتــه؟ أم أننــي كنت مجرد متفرج لا يرغب في أن تفوته خاتمة القصة؟ لم أكن لأفهــم لماذا ظلت ذكرى حلمي القديم مستحوذة عليّ طــوال الطريــق. إحــدى فردتي حذائي تمزقت.

بعد ساعتين أو ثلاث من الركض والعدو السريع، من الخبــب، مــن السير والتزحلق والسقوط وحتى التشقلب تراءى لــي طيــف الخياطــة الصغيرة جالساً على صخرة تميل قمتها عن القبور في شــكل محــدب. عندها تنفست الصعداء وأنا أرى شبح كابوسي القديم يتلاشى.

أبطأت من خطواتي ثم تهاويت، منهك القوى إلى جانــب الطريــق: البطن الخاوية تقرقر والرأس ينتابه دوار خفيف. بدا المشهد المحيط بــي أليفاً. ففي هذا المكان كنت قد قابلت قبل بضعة أشــهر (أم بينــوكلار). لحسن الحظ – قلت لنفسي – إن الخياطة الصغيرة توقفت هنــا. ربمــا أرادت في مرورها أن تقول لأسلافها من ناحية الأم وداعاً. لك الشكر يا رب فقد وضع ذلك حداً لركضنا قبل أن ينفطر قلبي أو أجن.

كنت على مسافة بضع أمتار من القمة المائلة وهو ما ســمح لــي أن أشاهد من أعلى وباستغراب مشهد لقائهما: أدارت الخياطــة الصــغيرة رأسها باتجاه (لو) الذي كان في تلك اللحظة يدنو منها، ثم وقــد خــارت قواه تهاوى على الأرض كما حدث لي تماماً.

لم أصدق ما تراه عيوني: تجمد المشهد في لوحــة صــامتة. الفتــاة بمعطفها الرجالي وبشعرها القصير وأحذيتها البيضاء تجمدت في مكانها

فيما الصبي، ممداً على الأرض يحدق بثبات في الغيوم فوق رأسه. لم يخطر في بالي أنهما كانا يتبادلان الحديث. لا سيما وأنه لم يتناهَ إلى أذنيّ أي صوت. ربما يعود ذلك إلى أنني كنت قد منيت نفسي بحضور مشهد يتسم بالعنف، لا تُسمع فيه سوى الصرخات، الاتهامات المتبادلة، التبريرات، البكاء والشتائم. لكن شيئاً من ذلك لم يحدث. الصمت المخيم فقط. دون دخان السيجارة الذي يتصاعد من فم (لو) لكنت اعتقدت أنهما استحالا إلى تمثالين حجريين.

مهما يكن من أمر، مع أن الغضب والصمت ما كانا ليفضيا في ظروف كهذه إلاّ إلى النتيجة ذاتها وسيكون من الصعب عقد مقارنة بين ذنبين ترتبت عليهما نتيجتان مختلفتان. إلا أنه ربما كان قد نسي خطة الهرب التي كانت حبيبته بصدد القيام بها أو أنه كان قد فقد قبل تلك اللحظة إيمانه بجدوى الكلمات.

تحت لسان صخري، أوقدت ناراً في كومة من الأغصان والأوراق اليابسة. من كيس صغير كنت أحمله معي وأخرجت بضع بطاطات لذيذات ودفنتها في الرماد.

مع أنني كنت قد ألزمت نفسي بدور المشاهد إلاّ أنني أحسست اتجاه الخياطة الصغيرة وللمرة الأولى بضغينة تضاهي تلك التي أحس بها (لو). ليس بسبب مغادرتها بل لعدم علمي بها. كما لو أن كل التواطؤ الذي نشأ بيننا إبان عملية الإجهاض كان قد انمحى من ذاكرتها ولم أعد ولن أعد أبداً بالنسبة لها سوى صديق حبيبها.

بطرف غصن نقرت على إحدى حبات البطاطا، رفعتها من الكوم المدخن. ربت عليها ونفختها لأزيل عنها الرماد والتراب. أخيراً وصلني من الأسفل طنين عبارات خارجة من فم التمثالين. كانا يتحدثان بصوت

خافت. مع ذلك لم يكن ليخفي الحالة العصبية لصاحبيه. سمعت على نحو مشوش اسم (بلزاك). تساءلت إذا ما كان هنالك شيء يتعلق بهذه القصة. في اللحظة التي أحسست فيها بالبهجة لانقطاع الصمت، بدأت اللوحة الجامدة بالحركة: انتصب (لو) ونزلت هي بوثبة من على صخرتها. لكن عوضاً عن أن ترتمي في حضن حبيبها اليائس تناولت صرتها وابتعدت بخطى حازمة.

- انتظري، تعالي كلي بطاطا! لأجلك أعددتها.

صرخت ملوحاً بحبة بطاطا لذيذة. صرختي الأولى جعلتها تركض على الطريق. الثانية دفعتها أيضاً نحو البعيد والثالثة حولتها إلى عصفور يطير أبعد دون أن يمنح نفسه لحظة استراحة، أصبح أكثر فأكثر صغراً ثم توارى عن الأنظار. لحق (لو) بي إلى جوار النار. جلس شاحباً دون أن تصدر عنه تنهيدة أو كلمة احتجاج. حدث ذلك قبل ساعات قليلة من جنون مشعل الحرائق.

- غادرتْ.

قلت له.

- تريد الذهاب إلى إحدى المدن الكبيرة. حدثتني عن (بلزاك).

هكذا حدثني.

- وإذن؟

- قالت لي أن (بلزاك) جعلها تفهم شيئاً واحداً: إن جمال المرأة كنز لا يقدر بثمن.

بلزاك

وراء العزلة التي يعيشها الأدب الصيني تتشامخ كومة من أسباب يختلط بها ما هو سياسي مع ما هو ثقافي. فقط عبر ممثليه الذين يعيشون في المهجر أمثال(جاوشين جيان) و (شان سا) وغيرهما.

استطاع هذا الأدب خلال السنوات الأخيرة أن يكسرحاجز العزلة هذا. فمنذ نيل الكاتبة الصينية (شان سا) جائزة GONCOURT عن روايتها (بوابة السلام السماوي) عام ١٩٩٨م .

بدأ هذا الأدب يستقطب اهتمام قطاع أوسع من القراء في أوروبا ليصل هذا الاهتمام ذروته مع فوز (جاوشين جيان) بجائزة نوبل عام ٢٠٠٠ م عن روايته(جبل الروح).

هذا النجاح الذي حازته الرواية في الغرب ربما يمثل سببا من أسباب عدة أدت الى أن تلقى هذه الرواية التي بين أيدينا (بلزاك و الخياطة الصينية الصغيرة) ما تستحق من اهتمام من قبل القارئ الفرنسي منذ لحظة صدورها عام ٢٠٠٠ م عن دار جاليمار رغم أنها العمل الأول لمؤلفها الصيني ديه سيجي.

نينوى
للدراسات
والنشر
والتوزيع

الغلاف: تمام عزام